التحليل النقدي للخطاب ونقاده
(روث بريز)

ترجمة: د. امحمد الملاخ

أستاذ اللسانيات - الكلية متعددة التخصصات أسفي
جامعة القاضي عياض - المغرب

ورد البحث في ٨/ ٧/ ١٤٣٩هـ وقُبل للنشر في ١٧/ ٥/ ١٤٤٠هـ

التحليل النقدي للخطاب ونقاده[1] "روث بريز"[2]

ترجمة: د. امحمد الملاخ

الملخص:

يمثل هذا المقال مراجعة مختصرة لصعود التحليل النقدي للخطاب، ويسعى إلى إثارة تحليلات مفصلة لمختلف الانتقادات الموجهة للتحليل النقدي للخطاب ولممارسيه على مدار العشرين سنة الأخيرة، من قبل الباحثين المشتغلين في إطار الأنموذج النقدي وغيرهم من النقاد. وسنناقش مجموعة متنوعة من الانتقادات التي استهدفت المسلمات الضمنية والمنهاجية التحليلية، ومجالات أخرى مثار نقاش من قبيل استجابة القارئ وإدماج العوامل السياقية. وسيتم، كذلك مراجعة المسائل السجالية من نمط التشديد ذي الطابع السلبي البارز في التقاليد البحثية للتحليل النقدي للخطاب، مثلما سنراجع وضعية التحليل النقدي للخطاب باعتباره « أرثودوكسية فكرية ناشئة». وستقدم الخلاصات جردا لأهم الانتقادات المنبثقة عن هذا العرض، كما ستقترح مسالك للتخفيف من حدتها.

الكلمات المفتاحية: التحليل النقدي للخطاب- المنهاجية التحليلية- لسانيات المتون- نظرية استجابة القارئ- الأنموذج النقدي- التسييق.

critical discourse analysis and its critics "Ruth Breeze"

Abstract:

This article briefly reviews the rise of Critical Discourse Analysis and teases out a detailed analysis of the various critiques that have been levelled at CDA and its practitioners over the last twenty years, both by scholars working within the "critical" paradigm and by other critics. A range ofcriticisms are discussed which target the underlyingpremises, the analytical methodology and the disputedareas of reader response and the integration ofcontextual factors. Controversial issues such as the predominantly negative focus of much CDA scholarship, and the status of CDA as an emergent "intellectual orthodoxy", are also reviewed. The conclusions offer a summary of the principal criticisms that emerge from this overview, and suggest some ways in which these problems could beattenuated.

Keywords: Critical Discourse Analysis; Analytical methodology; Corpus linguistics; Reader response theory; Critical paradigm; Contextualisation

المقدمة:

لقد توطد التحليل النقدي للخطاب بشكل حاسم كتخصص في دوائر العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، حتى صار المختصر «ت ن خ» شائع التداول، ليعكس بذلك مقاربة في دراسة اللغة تحظى بالاعتراف بين مجموعات متباينة. وفي واقع الحال، ذهب بعض العلماء إلى حد اعتبار التحليل النقدي للخطاب أنه قد أصبح على وشك أن يصير مذهبا فكريا،(بيليغ :Billig 2002:44)، وتخصصا ممأسسا يملك أنموذجه الخاص وأصوله ومزاعمه المتفق عليها، وكذلك بنيات تدعم سلطته. منذ أن أصبح التحليل النقدي للخطاب جزءا من المشهد الثقافي صار التوجه السائد هو التسليم بوجوده وقبوله، باعتباره طريقة صالحة للتفكير والبحث، إسوة بالأنموذجات التي حصلت على قسط من التقدير الثقافي.

غير أنه ما يثير الانتباه هو أنه حتى الدارسين الذين يعتبرون أنفسهم محللين نقديين للخطاب يحسون بضرب من عدم الارتياح لوسم التحليل النقدي للخطاب بسمة الأنموذج النقدي. فالبعض يحس أن الاحترام الذي يحظى به التحليل النقدي للخطاب يُسقِط المقاولة النقدية في تناقض، وكذلك الوضعية الجديدة لإطاره، إسوة بتخصصات أخرى متعارف عليها من شأنها أن تغلق مسلك النقد الذاتي الذي يعتبر جزءا لا يتجزء من برنامجه النقدي (بيليغ Billig 2002:36). أما البعض الآخر فيشدد على عدم الاتساق والتوافق الداخلي السائد بين الباحثين المنتسبين إلى التحليل النقدي للخطاب، ليؤكد على مزيد من الحاجة إلى نقاش وحوار قبل منح خاصية مدرسة للتحليل النقدي للخطاب، أو رفض الرغبة في التوافق باعتبارها وهما:

(فيركلاف وفوداك Fairclough and wodak 1997:271، شوللياكاري وفيركلاف chouliaraki and Fairclough 1999، فان دايك Van Dijk 2003:352). ولدى البعض استياء بخصوص المنحى السلبي العام الذي يسود الأعمال المنضوية في حقل التحليل النقدي للخطاب، ولذلك يدعون الدارسين النقديين من أجل مزيد من الاهتمام بالاستعمالات الإيجابية والتغييرية للخطاب (مارتان Martin 2004:183، لوك Luke 2002: 7–106).

وفي الوقت ذاته أمطر اللسانيون وغيرهم ممن يموضعون أنفسهم خارج حدود التحليل النقدي للخطاب وابلا من الانتقادات التي لامست عددا من مظاهر عدم الاتساق داخل حقل التحليل النقدي للخطاب. سلط هؤلاء النقاد الضوء على مشاكل الإطار ذات الطابع الإبستمولوجي والنظري، وبشكل أخص المنحى الأداتي للنظرية، والفشل في تحديد هدف محدد ومضبوط للبحث، علاوة على كونهم وجهوا سهام نقدهم إلى نمط المنهاجية اللسانية التي تُطَبَّق غالبا، بالإضافة إلى نظريات اللغة والتواصل الضمنية، مبرزين مدى إخفاق باحثي التحليل النقدي للخطاب في إدماج السياق والجمهور بشكل مُرْض في إطارهم التحليلي، ليفضي تحليلهم إلى مزاعم وثوقية ساذجة بخصوص اشتغال الخطاب وإعادة الإنتاج الاجتماعي.

لهذه الأسباب، من المفيد إعداد مراجعة مختصرة لصعود التحليل النقدي للخطاب، بشكل خاص، وذلك بإلقاء نظرة على مبادئه المفتاحية، وإماطة اللثام عن خلفياته الفكرية غير المتجانسة، وذلك قبل التوجه نحو تحليل مفصل لمختلف الانتقادات الموجهة للتحليل النقدي للخطاب ولممارسيه، من داخل وخارج حدود التخصص.

نظرة موجزة حول التحليل النقدي للخطاب

١– تعريف التحليل النقدي للخطاب

في اتفاق مع كثير من البيبليوغرافيات المنجزة في الموضوع، تحيل مقدمة هذه الدراسة على التحليل النقدي للخطاب باعتباره كيانا ومقاربة معترفا بها لدراسة اللغة، أو «برنامجا» (فوداك Wodak 2011:50). ينبغي التأكيد من البداية، أنه على الرغم من كون مسألة وجود هذه المقاربة مسألة لا جدال حولها، وعلى الرغم أيضا من كون مقاربة التحليل النقدي للخطاب تحتل مجالا أكثر أو أقل تحديدا في المشهد الفكري، إلا أن كثيرا من الدارسين المشتغلين في إطار هذا الأنموذج، يستشعرون أنه ليس من الصائب الإحالة على التحليل النقدي للخطاب ككيان موحد ومتجانس. وبالرغم من أننا نعتبر «التحليل النقدي للخطاب» توجها وحركة واحدة معترفا بها من الخارج ذات سمات مشتركة ووعي ذاتي، بمعنى أن ممثلي هذا التوجه يعدون أنفسهم مشتغلين في إطار الأنموذج «النقدي» لتحليل الخطاب، وهذا التصور نتبناه لأغراض الدراسة الحالية التي نقدمها، غير أنه وجب التشديد على أن هناك مجموعة من «المدارس» القابلة للتحديد والمجموعات والأفراد الممارسين داخل التحليل النقدي للخطاب لا تنطبق عليهم بشكل متكافئ كل القضايا التي سنتناولها. ومن الضروري التمييز بين المقاربات البريطانية الأولى التي تجسدها أعمال (فيركلاف 1989،1985 Fairclough) و(فاولر 1991 Fowler) والأعمال اللاحقة الأكثر تطورا وانسجاما تتجسد في أعمال (شولياراكي وفيركلاف 1999 chouliaraki and Fairclough) والمسمى «النموذج السوسيو معرفي» للتحليل النقدي للخطاب الذي يتزعمه فان دايك 1991 Van Dijk وجماعته، و«المدرسة التاريخية للخطاب» ورائدتها (فوداك Wodak فوداك 1990، 1996، 2007). وتميز (فوداك ٢٠١١)

بين المدرسة الفرنسية للتحليل النقدي للخطاب التي تعود إلى أعمال (بيشو Pecheux 1982) المتأثرة بباختين Bakhtin ومدرسة ديسبورغ Duisburg (جاكر Jager 1999) التي تركز اهتمامها على لغة الإعلام من منظور فوكوي، وبين المقاربة التي يدافع عنها ماس (Maas 1989) التي تفحص الكيفية التي تنطبع بها التناقضات الاجتماعية في النصوص، وكيف يتواطأ القراء في الخطابات الإيديولوجية. ولضيق المجال، سيتعذر تقديم كل مدرسة على حدة، لكن سنعرض للانتقادات الموجهة إلى مجموعات محددة من المحللين.

نستعمل مصطلح التحليل النقدي للخطاب من أجل أغراض الدراسة الحالية، بمعنى أكثر تحديدا للدلالة على إطار واسع من النظرية والبحث يقوده محللون يعتبرون أنفسهم محللين نقديين للخطاب بمعنى أو بآخر. ويُغنينا ذلك عن ضرورة اختزال حيز الإحالة بشكل مطرد على «محللين نقديين للخطاب» كثر أو «معظم الأشخاص المشتغلين ضمن أنموذج التحليل النقدي للخطاب». ومع ذلك، بما أن استعمال التحليل النقدي للخطاب كـ «مصطلح مظلة» يقتضي أن نكون حذرين من التعميم المفرط، فإننا سنحاول ما أمكن التعريف بمجموعات فرعية خاصة أو كتاب ينتسبون لتقليد التحليل النقدي للخطاب متى كان ذلك ضروريا.

باعتباره حركة واعية بذاتها، مالكة لرزنامة واضحة، يزخر التحليل النقدي للخطاب بتعريفات تحدد مزاعمه وإنجازاته. تتراوح هذه التصريحات بين التصريح الأكثر تسييسا: «لتفسير المواضعات الموجودة باعتبارها نتاجا لعلائق السلطة والصراع من أجلها» (فركلاف Fairclough 1989:2)، والتصريح الملطف الصيغة: «للإجابة عن أسئلة متعلقة بالعلاقة بين اللغة والمجتمع» (روجرز Rogers 2005: 365). وتقترن هذه المراوحة بالموقع الذي يحتله الباحث. إلا أن ثمة

إجماع على أن التحليل النقدي للخطاب يتضمن عنصرين أساسيين: اهتمام سياسي، يقل أو يكثر، باشتغال الإيديولوجيا والسلطة في المجتمع، واهتمام خاص بالكيفية التي تسهم وتدعم وتكشف من خلالها اللغة ذلك الاشتغال. هكذا تشدد أكثر التعريفات وضوحا على العلاقة بين اللغة (النص، الخطاب) والسلطة (الصراع السياسي، اللامساواة، الهيمنة).

«يهتم التحليل النقدي للخطاب بشكل خاص بالعلاقة بين اللغة والسلطة... وينصب اهتمامه على العلائق المكشوفة للصراع والنزاع» (ويس وفوداك Weiss and Wodak 2002:12).

«يقتضي التحليل النقدي للخطاب مراوحة مبدئية وشفافة إلى الخلف والأمام بين التحليل المصغر للنصوص باستعمال مختلف أدوات التحليل اللساني والسيميوطيقي والأدبي، وبين التحليل المكبر للتشكيلات الاجتماعية والمؤسسات وعلائق السلطة التي تؤشر إليها هذه النصوص وتبنيها» (لوك Luke 2002: 100).

تكشف التعريفات الأولية السالفة الذكر مجموعا واسعا من الأسئلة المتعلقة بمعنى المصطلحات المفاتيح: «السياسة» و«السلطة» و«الإيديولوجيا»، حتى لا نأتي على ذكر مصطلحات أخرى مثل: «النقدي» و«الخطاب» و«التحليل» التي سنفحصها في القسم الموالي، حيث سنعرض بشكل مختصر للتاريخ الفكري للتحليل النقدي للخطاب.

٢- مفكرون أسلاف:

لا مشاحة في أن التيار المدعو بالتحليل النقدي للخطاب قد بدأ يشهد قفزة نوعية منذ أواخر سبعينيات القرن الماضي، وذلك في عدد من المنشورات التي عملت في البداية على نقل اللسانيات الوظيفية النسقية لدى هاليداي إلى منظور اجتماعي أرحب قادر على رصد قضايا سياسية ذات ارتباط بالسلطة والتحكم. ولقد شكلت أعمال من قبيل: «اللغة والهيمنة» لدى (فاولر وهودج وكريس تريو Fowler,Hodge, Krees, Trew 1979)

و«اللغة والإيديولوجيا» لدى (هودج وكريس Hodge and Krees 1993) اللبنات المؤسسة للتحليل النقدي للخطاب وإن لم تستعمل هذا المصطلح. ولقد كان فيركلاف في مقال له نُشِر سنة ١٩٨٥(فيركلاف: ١٩٨٥: ٧٣٩) أول من استعمل مصطلح التحليل النقدي للخطاب، لكن شاع استعماله مع الكتاب ذي التأثير الواسع «اللغة والسلطة» (فيركلاف ١٩٨٥) وتوطد استعمال المصطلح من خلال نشر كتاب «التحليل النقدي للخطاب» (فيركلاف ١٩٩٥) ذي العنوان الفرعي: «الدراسة النقدية للغة». ولقد أشار أحد النقاد إلى أن استعمال أداة التعريف في العنوان الفرعي يستلزم تعدد المقاربات النقدية التي عرضها الكاتب في أعماله السابقة، والتي تم: «صهرها في وحدة يتم التعرف عليها باعتبارها الدراسة النقدية» (بيليغ ٢٠٠٢: ٣٥). وليس من قبيل المبالغة اعتبار مصطلح فيركلاف ممثلا للجذر الأصل. وهكذا، بالرغم من تزايد المنشورات في هذا المجال، يظل الكتابان اللذان نشرهما فيركلاف والمشار إليهما أعلاه يمثلان أفضل مصادر التحليل النقدي للخطاب، يُحال عليهما باستمرار في تخصصات متعددة (روجرز ٢٠٠٥: ٣٦٥، ٣٧١).

ومن وجهة نظر لسانية، يحمل التحليل النقدي للخطاب آثار ردود الفعل ضد اللسانيات البنيوية التي شهدتها الفترة بين ستينيات وسبعينيات القرن الماضي. وعلى غرار اللسانيات الوظيفية النسقية والتداوليات وتحليل المحادثة والإثنوغرافيا، بلور التحليل النقدي للخطاب نظرية للغة تأخذ على محمل الجد الوظائف الاجتماعية للغة. لكن خلافا للسانيات الوظيفية النسقية يرفض التحليل النقدي للخطاب اللسانيات الوصفية والتفكير البنيوي اللذين طَبَعا كثيرا من أبحاث اللسانيات الوظيفية النسقية. ويتمثل الملمح المميز للتحليل النقدي للخطاب في اختلافه عن المقاربات الأخرى وذلك من خلال اهتمامه بالسلطة، وافتراضه المحايث أن العلاقات الاجتماعية التي تعكسها الظاهرة اللغوية تمثل جزءا من نظام شامل يتميز بعلاقات غير متكافئة للسلطة. فبدأ بالاحتكام إلى النظرية الاجتماعية والسياسية ينظر في اللغة ليس في حد ذاتها، ولكن باعتبارها دليلا على ما يعتمل في إطار أوسع.

يقر معظم مؤرخي التحليل النقدي للخطاب أن أصل الانشغال المسيَّس بالمجتمع يعود لكُتَّاب عملوا ضمن التقليد الماركسي أو الماركسي الجديد، وتحديدا مع مدرسة فرانكفورت Frankfurt من خلال روادها أدورنو Adorno وماركيز Marcuse وهوركهايمر Horkheimer. تتشكل مدرسة فرانكفورت من جماعة من المفكرين انصب اهتمامهم على الكيفية التي يمكن للنظرية الماركسية أن تسلط من خلالها الضوء على تطورات الرأسمالية في القرن العشرين. لقد أدركوا أن الحتمية الاقتصادية التي قدَّمها ماركس لم تعد صالحة للظروف الراهنة، فتركز اهتمامهم على تحولات الرأسمالية التي أفضت إلى استمرارية البنيات القمعية بوسائل إيديولوجية. من أجل فهم وجاهة هذه الخلفية، من الضروري التشديد على أن المنظرين الماركسيين يختلفون عن علماء الاجتماع الحاليين بمقتضى

توجههم المعياري، بينما معظم علماء الاجتماع يعتقدون أن دورهم ينحصر في الملاحظة والتأويل، وعلى عكس علماء الطبيعة الذين يجب أن يكتفوا بوصف وتأويل العالم الطبيعي، يعتقد علماء الاجتماع الماركسيين أن مهمتهم صياغة أحكام ووضع معايير. وهكذا فالطرح الذي يتبنوه «نقدي» لأنهم أدركوا أنه قد خُوِّل لهم تقويم ما يجري في المجتمع، ولأنهم كذلك أدركوا أنهم يحوزون معايير بموجبها ينجزون تقويماتهم. وبكلمة واحدة، يعتقد منظرو هذه المدرسة أن لهم منفذا لمعرفة ليس فقط ما هو عليه المجتمع، ولكن ما ينبغي أن يكون عليه.

بالرغم من انعدام الروابط المباشرة بين مدرسة فرانكفورت ومعظم المحللين النقديين للخطاب باستثناء واضح يرتبط بالمدرسة التاريخية للخطاب (انظر أسفله)، غير أن تقاسم جهاز اصطلاحي موحد وخلفية معرفية مرتبطة بالمقاربات الماركسية للرأسمالية المتأخرة، دفع معظم ممارسي التحليل النقدي للخطاب إلى الزعم بوجود قرابة فكرية تربطهم بمجموعة فرانكفورت (شولياراكي وفيركلاف chouliaraki and Fairclough 1999). إلا أن التيارات المنبثقة مع مدرسة فرانكفورت بعيدة كل البعد على أن تكون التيارات الفكرية الوحيدة التي مارست تأثيرا على التحليل النقدي للخطاب. لقد كان العامل الحاسم من غير شك متمثلا في المنعطف «النقدي» العام الذي طبع العلوم الاجتماعية في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين. ومن الواضح أن التيار يدين بشكل خاص لكتاب محددين من قبيل كرامشي Gramsci الذي يدين له باستبصار دال مفاده أن القمع الاجتماعي يتحقق غالبا عبر هيمنة مستبطنة، لتشمل مظاهر الإرغام والإجماع (مما يستلزم استعمال اللغة)، كما اقتبسوا من بورديو Bourdieu مصطلحات من قبيل الهابيتوس Habitus والرأسمال الرمزي وأنساق المعنى، وكذلك هابرماس Habermas الذي شدَّد على الدور الحاسم للتواصل في

أنظمة المجتمع الحديث. لم يكن هؤلاء المنظرون لسانيين وإن كان لهم اهتمام باللغة، غير أن تأثيرهم في التحليل النقدي للخطاب يقترن أساسا بتأويلاتهم حول المجتمع، ونظراتهم بخصوص الآليات المتعلقة باشتغال الإيديولوجيا ودورها في خلق ودعم الأنساق الاجتماعية، ولقد تُرِك للسانيين النقديين أمر تعيين واستكشاف التمظهرات اللسانية الحالية لمثل تلك الظواهر.

وبالمناسبة، لقد أُنجزت محاولات لموضعة التحليل النقدي للخطاب ضمن تقليد لساني تليد. فهذا لوك Luke في عمله المنجز سنة ٢٠٠٢ (٢٠٠٢: ٩٧) وفي خطوة متقدمة قَدّم تصورا بخصوص أسلاف المفكرين الذين يتموضع التحليل النقدي للخطاب في سياقهم، ليموضع التيار ضمن: «تاريخ مميز وغير مكتمل لمحاولات إنجاز لسانيات سياسية معيارية»، وهي محاولات تمتد من فولوشينوف Voloshinov إلى باختين Bakhtin. ويزعم «لوك» أن هذه التيارات إن أخذت مجتمعة بمعية التحليل النقدي للخطاب فهي تشكل «تقليدا مضادا ثابتا في اللسانيات» (لوك ٢٠٠٢: ٩٧) ترفض مقاربات في العلوم الاجتماعية بشكل عام واللسانيات بشكل خاص، مؤسسة على نظريات ليبرالية جديدة للفرد والمجتمع، فوفق منظور لوك ليس التحليل النقدي للخطاب مدرسة صورية للفكر، بل جماع مواقف تدعو في مجملها إلى تحليل لدور اللغة في المجتمع ضمن منظور سياسي مكشوف، مركزة اهتمامها بشكل خاص على الكيفية التي تعزز بها الجماعات المهيمنة مصالحها بواسطة الخطاب. ضمن هذا المنظور «النقدي» أو «اللاليبرالي» يغدو من الضروري بالنسبة إلى كثير من المتخصصين في التحليل النقدي للخطاب تمييز أنشطتهم عن تلك المنجزة من طرف اللسانيين «غير النقديين» ومحللي الخطاب من خلال التشديد على أن تحليلاتهم تذهب أبعد من مجرد وصف أو تأويل لدور اللغة في المجتمع، إلى تفسير كيف ولماذا تفعل

اللغة فعلها، وما يضمره ذلك الفعل (فيركلاف ١٩٨٩). بعبارة فيركلاف: «يستلزم الفعل النقدي إبراز الروابط والأسباب الخفية» (١٩٩٢: ٩)، مما يعني فك شفرة العمليات الإيديولوجية، ما دامت الأنظمة الخطابية للإيديولوجيا تسعى إلى إخفاء صراعات السلطة التي تعتمل في العالم الاجتماعي.

إحدى التأثيرات الهامة في التحليل النقدي للخطاب، وإن لم تكن متوافقة مع ما تم ذكره أعلاه ترتبط بالفوكوية ما بعد البنيوية. لقد كان لفوكو رد فعل تجاه النظريات البنيوية حول المجتمع من قبيل الماركسية التي زعمت أن العلاقات المطردة والقابلة للملاحظة توجد بين البنيات داخل الأنساق وأن الإنسان يصل إلى معرفتها. ويكمن نقد فوكو Foucault للبنيوية في تركيزه على الطبيعة المنفلتة للبناءات الاجتماعية، والطبيعة المتحولة لعلائق السلطة والدور المركزي للخطاب في تشكيل العلاقات الاجتماعية (فوكو Foucault: 1969: 25–28). فوفق منظور فوكو يتحرك الخطاب إلى الخلف وإلى الأمام ليعكس ويبني العالم الاجتماعي لمختلف الفاعلين الذين يستعملونه أو يتموضعون بواسطته. فأنظمة الخطاب هي الممارسات الخطابية للمجتمع أو المؤسسة التي تتداخل وتتشابك، وبالنسبة إلى فوكو ليس بالإمكان بلوغ المعنى (فوكو ١٩٨١: ٥٤). وبالمقابل ركز اهتمامه على تحليل شروط وجود المعنى ومبادئ إنتاجه. لقد حرص على تجنب التأويل، رافضا أهداف الهيرمينوطيقا، ممحورا اهتمامه حول الممارسات الخطابية في عالم تصير فيه كل الخطابات نسبية وفي تحوُّل مستمر، لقد أخذ رواد التحليل النقدي للخطاب على محمل الجد مركزية اللغة عند فوكو، خاصة وأن معظم أبحاثهم تتشكل على قاعدة الظاهرة الخطابية. في إحدى تعريفات فيركلاف وفوداك (١٩٩٧: ٢٥٨)، يحظى الخطاب بأهمية لأنه يشتغل إيديولوجيا، يُشَكل ويشرط المجتمع والثقافة، يخلق ويجعل علائق السلطة دائمة. بينما يظل بشكل لافت للانتباه شفافا وغير

منظور حتى بالنسبة لمستعمليه. غير أن التوجه المؤسس على عدم استقرار ونسبية الخطاب المحايث للنظرية الفوكوية عادة ما يتجاهله ممارسو التحليل النقدي للخطاب، لصالح مقاربة أكثر استقرارا ومعيارية لتأويل الظاهرة الاجتماعية.

نقد التحليل النقدي للخطاب:

١- نقد المسلمات الضمنية:

كما مر بنا سابقا، نادرا ما كان المشتغلون بالتحليل النقدي للخطاب متباطئين في دفاعهم عن أطروحاتهم السياسية ومعتقداتهم بخصوص البحث الذي يجب بالنسبة إليهم أن يكون «نقديا» بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان سبقت الإشارة إليها. ومن البدهي، كذلك، أن ما يطبع الموروث الفكري للتحليل النقدي للخطاب من عدم التجانس يجعل مهمة رصد التبرير الملائم لطرح أو تأويل محدد بالنسبة إلى الباحث مسألة عسيرة. مما دفع بعض النقاد إلى اتهام التحليل النقدي للخطاب بالاشتغال الفوضوي، وبكونه يتحرك بأهواء خاصة بدل أن يكون مبنيا على مبدأ أكاديمي مؤسس. ولقد حاول آخرون تعرية واستصراح الأساس الفلسفي والسوسيولوجي المحدد ليخلصوا إلى أن الأسس التي يقوم عليها ليست صلبة، خلافا لما يزعمه ممارسوه.

لقد وجّه (هامرسلي Hammersley 1997: 237–248) سهام نقده للمزاعم المؤسسة للتحليل النقدي للخطاب، متهما فيركلاف وآخرين بإقرارهم بالحاجة إلى مقاربة نقدية كما لو أن هذه الحاجة أمر واضح ولا غبار عليه. بداية، استدل هامرسلي على أن النظرية الماركسية الأرثودوكسية فقدت مصداقيتها، لقد تم تجاهلها من طرف الفلاسفة والمؤرخين والاقتصاديين الذين رفضوا معظم أفكار ماركس باعتبارها آلية، غير مؤسسة وغير صالحة لفهم مجتمعنا الراهن. لينتقل

بعد ذلك إلى تحليل مدرسة فرانكفورت التي كما سبق أن أشرنا إلى ذلك سابقا يتم الزعم عموما بكونها تعتبر من الأسلاف المباشرين للتحليل النقدي للخطاب، ليؤكد على أن مدرسة فرانكفورت بلا منازع تشكل أساسا صلبا للمقاولة النقدية للتحليل النقدي للخطاب، لأن التحولات التي شهدتها النظرية الماركسية مع أدورنو وهوكهايمر كانت جذرية، ذهبت أبعد من العوامل الاقتصادية لتلامس قضايا ذات ارتباط بالاستلاب والعقلانية والطبيعة الإنسانية. لقد زعموا أن الاستلاب: «نتاج تصدع العقلانية الغربية، وبشكل خاص مع السعي نحو السيطرة على الطبيعة، بما فيها الطبيعة الإنسانية» (هامرسلي ١٩٩١: ٢٤٢)، التي طرحت عددا كبيرا من القضايا غير المحسومة بخصوص الطبيعة العقلانية للبحث العلمي، غير أن نمط النقد الذي يقترحه أدورنو يبدو أنه يختزل الصورة من خلال تفضيله عامل تفسيري على آخر، مشككا في إمكانية بلوغ التحرر. لقد انصب اهتمام مدرسة فرانكفورت على تفسير التغيير الاجتماعي، مقدِّمة نقدا متطورا للماركسية الأرثودوكسية، تبعا لهامرسلي، لكنها لم تقدم أساسا فلسفيا فعليا للبحث النقدي من النمط الذي يدعو إليه المحللون النقديون للخطاب. بالرغم من نقطة الخلاف الأساسية التي ينطلق منها هامرسلي المتمثلة في كون مسألة الأسس الفلسفية للتحليل النقدي للخطاب: «أمرا بدهيا ومسلما به، كما لو أنه لا نقاش يُطْرح بخصوصها» (١٩٩٧: ٢٤٤) تم تأكيدها في كثير من الدراسات المرتبطة بالتحليل النقدي للخطاب، مما لا يعني أن مقاربة أكثر تأسيسا يمكن استبعادها، كما لا يعني ذلك أن الصعوبة المحايثة لمقاربة مبنية على نقد عقلانية الفكر الغربي تجعل من ذلك التحليل مسألة غير ممكنة. قدّم هارمسلي في تحليلاته الأخيرة تحليلا أكثر دقة متعلقا بمزاعم ممارسي التحليل النقدي للخطاب الطموحة، بخصوص منح فهم شامل للمجتمع ككل ولكيفية اشتغاله، وهو فهم «يسمو» على أطروحات ومواقف أخرى وذلك تحديدا

لكونه يقوده روح النقد الذاتي (١٩٩٧: ٥ – ٢٤٤). بما أن الشق الأكبر من زعمه بالمشروعية ينبني على هذا التأكيد، فإن المتخصصين في التحليل النقدي للخطاب مدعوون إلى توجيه اهتمامهم إلى الدعامة الإبستمولوجية لأعمالهم ولاستلزاماتها المنهاجية.

وفيما يتعلق بهذه المسألة بالذات، من المهم أن نشير إلى أن مصطلح «نقدي» في حد ذاته يلعب دورا خاصا في تاريخ مدرسة فرانكفورت. لقد تم تبني كلمة «نقدي» عندما كان أعضاء مدرسة فرانكفورت منفيين في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث كان نعت «ماركسي» غير مقبول (شولم Scholem 1982: 210). وكما سبقت الإشارة إلى ذلك يعني لفظ «نقدي» في معناه الأول القدرة على تقويم المجتمع من وجهة نظر معينة، والحالة هاته، ليست سوى الماركسية تحديدا، ولمصطلح «نقدي» تاريخ استعمال طويل يعود إلى كانط Kant الذي استعمله للدلالة على أن تحليله مؤسس على مبادئ عقلانية قبلية «بدون إيعاز من التجربة» وليس على الوثوقية غير النقدية لسابقيه (كانط ١٧٨١: ٣، بيليغ ٢٠٠٢: ٣٧). ولقد استعملت كلمة «نقدي» بعد مدرسة فرانكفورت وتبنت الكلمة مقاربات متنوعة في العلوم الاجتماعية وبشكل ملحوظ من قِبل علم النفس النقدي الذي زعم أنه ينحدر فكريا من مدرسة فرانكفورت (وإن كانت كثير من مقارباته لا تربطها صلة كبيرة بأعمال منظري مدرسة فرانكفورت)، واشتغل بمسلمة مفادها أن البحث الأكاديمي مدعو لنقد شروط الحياة الاجتماعية من أجل تحسينها (جرغن Gergen 1994: 11 – 20). وترتبط كلمة «نقدي» في حقل التربية بـ «البيداغوجيا النقدية» لدى (باولو فرير Paulo Freire) الذي أكّد على ضرورة مقاومة الهيمنة ودعم المقموعين من خلال تشجيع نمو الوعي النقدي. وهكذا استُعْمِل مصطلح «نقدي» في

تخصصات متعددة للدلالة بشكل فضفاض على «نقد الوضعية القائمة» أو «نقد المنظورات الإنسية الليبرالية»، وفي الغالب ما استعملت للدلالة على التزام بالتغيير الاجتماعي.

ومن أجل مزيد من التعقيد نضيف معنيين محتملين لكلمة «نقدي». فمن جهة، يعترف منظرو مدرسة فرانكفورت أن أعمالهم «نقدية» بمعنى آخر، كونها تقدم نقدا لما تعتبره بمثابة الوضعية السلطوية للماركسية الأرثودوكسية (شاو Shaw: 1985: 165). وبمعنى آخر، إنهم يدركون ضرورة نقد الأفكار المسبقة، أملا في تطوير أفكار جديدة، وفهما عميقا وواسعا لتطورات الرأسمالية، فهم يذهبون أوسع مما تقدمه الماركسية. ولذلك عليهم أن يمارسوا نقدا ذاتيا، وأن يُخْضِعوا عملهم لمعايير فكرية صارمة. لا يظهر هذا الإرث «النقدي» لمدرسة فرانكفورت على نطاق واسع في معظم المقاربات المنتسبة للتحليل النقدي للخطاب، والتي لا تخضع منظورها السياسي اليساري للنقد. ويمكن أن نستثني من هذا التوجه العام المقاربة التاريخية للخطاب (فوداك ٢٠٠١، ريسغل و فوداك Reisigl and Wodak 89 – 86 :2009، 35 32- :2001) التي تميز بين ثلاثة أبعاد للنقد: نقد نصي وتشخيص اجتماعي استشرافي/ ارتجاعي، وتدافع عن نقد ذاتي عبر أطوار متعددة خلال المسار التحليلي. وهناك استثناء آخر نعثر عليه في الطرح الذي دافع عنه (كلووي Gloy 1988) والمسمى بمدرسة أولدنبرغ Oldenburg (بريدهوفت Bredehoft 1994: 4، بلوهم Bluhm 13 – 10 :2000) التي تقر أن المحللين جزء من الخطابات التي تشكل موضوعا لأبحاثهم، وتُلِح على ضرورة كشف الدارسين لمنظوراتهم ولما يؤسسها، في أفق منح نظراتهم مصداقية على المستوى البين ذاتي.

ومن جهة أخرى يمكن أن نضيف إلى الإيحاءات المتعددة لمصطلح «نقدي» في هذا السياق معنى آخر يتمثل في أن التلاميذ في التربية الليبرالية الكلاسيكية

بمعظم المناطق الناطقة بالأنجليزية يشجعون على أن يكونوا «نقديين»، وذلك بأن يفكروا بأنفسهم بدل أن يسلموا بما يقرؤون بدون نقد، إنها مهارة فكرية لا تقتضي وجود أي انتماء إيديولوجي محدد. وذلك، بمعنى من المعاني، ما جعل مصطلح «نقدي» مصطلحا متعدد الدلالات، مما أفضى إلى التباسات مرتبطة بطبيعة دور محلل الخطاب وطبيعة الموقف السياسي الذي يجب عليه اتخاذه. يدرك كثير من الدارسين كونهم «نقديين» لأن ذلك ما شجعتهم عليه التربية التي تلقوها. وآخرون يعني «نقدي» بالنسبة إليهم نقد المجتمع من منظور ماركسي جديد، وآخرون يرون أنهم «نقديون» لأنهم يتبنون موقفا نقديا تجاه بعض الطروحات الماركسية الجديدة. وحصيلة كل ذلك خلط للمعاني ينتج عنه افتقار للوضوح وللدقة الفكرية. فبالنظر إلى مشاكل التعريف التي تمثل أساس التحليل النقدي للخطاب تبدو مقاولة التحليل النقدي للخطاب أحيانا مفتقرة إلى الاتساق.

وفي الآن نفسه، ثمة تناقض أساسي أومأنا إليه سابقا، تناقض بين الطروحات الماركسية والطروحات ما بعد البنيوية لدى الأسلاف الفكريين للتحليل النقدي للخطاب. فبينما يحتكم الماركسيون إلى نظرية معيارية للتاريخ وللمجتمع، نجد الكتاب المنتسبين لما بعد البنيوية وللتيار ما بعد الحداثي يذهبون إلى كون كل السرديات الكليانية غير صالحة ومتلاعبة إلى حد ما. غير أنه على مستوى القرارات السياسية الفردية في المشهد الفلسفي ما بعد الحداثي من الصعب تبرير تبني سرديات كبرى معينة لتأويل ظاهرة ملحوظة. فعلى سبيل المثال، رفض فوكو في إحدى المناسبات بشكل ملحوظ التورط في إصدار أحكام قيمة حول الخطابات التي يدرسها (فوكو ١٩٦٩). وبدل ذلك، اقتُرح في إطار ما بعد الحداثة أنه على المرء أن يختار قيما محددة أو موقفا محددا في سيرورة التعريف

بالذات وجوديا. والتي تُنعت أحيانا بالنزعة القرارية. (هابرماس Habermas 1976، ماكينتير Macintyre 1981). فوفق هذا المنظور، على الرغم من محاولتنا صياغة التزاماتنا باتباعنا لإواليات «عقلانية» إلا أن التفكك الأخلاقي والفكري يحول دون إيجاد أساس صلب لسياسة عقلانية أو خطاب سياسي معقول، والأمل ضئيل لتعزيز التحرر الإنساني.

وإزاء هذه السيناريوهات المتناقضة، هاهنا يتساءل (همرسلي Hammersley) إن كان من اللائق موضعة الباحثين في التحليل النقدي للخطاب في زاوية ما بعد البنيوية باعتبارهم أشخاصا اختاروا موقفا كفعل إرادي، وليس نتاج مداولة موسعة مؤسسة على فحص المعطيات والقضايا. إذا كان الأمر كذلك، حسب استدلاله (١٩٩٧: ٢٤٢ – ٢٤٥)، فإنه لن يوجد سبب محدد بموجبه يجب على القراء أن يقبلوا الطرح السياسي للتحليل النقدي للخطاب بدل طروحات أخرى، وبالتالي يصير زعم التحليل النقدي للخطاب بتحقيقه لـ «السلطة التأويلية» و«السلطة التحررية» مجرد إثباتات يمكن للمرء أن يتبناها باختياره مشاطرة وجهات نظر روادها أو عدم مشاطرته لها.

ولما سلف نتائج بعيدة المدى على وضعية التحليل النقدي للخطاب باعتباره مقاربة. وكما أشار إلى ذلك هامرسلي، إذا تبين أن الموقف السياسي الذي بُني عليه التحليل النقدي للخطاب غير مؤسس، وأنه مجرد نتاج للنزعة القرارية، فإن ذلك لا ينسجم مع المزاعم القوية للتحليل النقدي للخطاب، ولا مع أنشطته. فإذا كان المبدأ المركزي للبحث النقدي يتمثل في أن البحث ينبغي أن يوجه نحو تحقيق وظائف سياسية (فضح اللامساواة والهيمنة والظلم)، وليس أن يكون مجرد إنجاز لهدف مواضعاتي للبحث (أن يكتفي بملاحظة وتأويل الظاهرة)، فيجب إذن أن يكون ثمة مسوغ قوي لذلك المبدأ. وإذا كان، في منتهى الأمر، التسويغ

مسألة اختيار فردي، فإنه ما من حافز يدعو القارئ لأخذ هذا النمط من البحث على محمل الجد.

وغالبا ما يكون الباحثون في التحليل النقدي للخطاب متيقظين لمسألة إظهار التزاماتهم السياسية قبل الشروع في تأويل وتفسير الظاهرة الاجتماعية. فمثلا، تميل فيركلاف إلى التشديد على ميولاتها اليسارية العتيدة، وإن كانت من حيث المبدأ، تستدل على أن البحث النقدي لا يحتاج أن يكون يساريا، وأن الأشكال اليمينية للتحليل النقدي للخطاب ممكن تصورها (فيركلاف ١٩٩٦: ٥٢). ولا بد هنا، من طرح نقطتين: الأولى، أنه إذا كان الأمر كذلك، فينبغي أن تكون تأويلات فيركلاف وغيرها مفتوحة للمساءلة، لأن أي تأويل يساري يجب أن يتم مواجهته بالتساوي بتأويل يميني أو بأي زاوية سياسية موجودة. وهكذا، فالمشروع العلمي للتحليل النقدي للخطاب برمته يُنظر إليه على أنه مشروط، وبقوة، بالاختيار السياسي بدل أن يكون مشروطا بالمعيار العلمي الذي يحتل دورا ثانويا. النقطة الثانية، تتمثل في أن النزوع المطرد للمنتسبين للتحليل النقدي للخطاب نحو الشفافية والمصداقية لن يعفيهم من مطلب الموضوعية في أبحاثهم، ولطالما لـمَّح بورديو إلى الطابع السطحي لمثل هذا النمط من الإعلانات، وكذلك إلى الدور الذي تلعبه التعريفات الذاتية في صراعات السلطة الأكاديمية (b: 308 1984). وفي الواقع، من الشائع بالنسبة إلى الكتاب في مختلف أنماط الإطار مابعد الحداثي أن يحاولوا التحايل على المعضلات الإبستمولوجية الجدية عبر اتخاذ موقف صريح من الخارج. ويعتبر ذلك شائعا، بشكل خاص في مجالات من قبيل المقاربات ما بعد الحداثية للمسألة النسائية (هاردين Harding: 11–12)، حيث إن المسوغ المعتاد الذي يطرح يتمثل في الحاجة إلى منظور نسائي لإعادة التوازن إلى نسق محكوم بالنظام الأبوي، سواء أحُلَّت المشاكل الإبستمولوجية لما بعد البنيوية أم

لم تُحَل، فإن المناورات من هذا القبيل لا تبرئ الكاتب من مسألة إساءة تقديم المعطيات أو تأويلها وفق الكيفية التي يختارها بإيعاز من هدف سياسي محدد.

وبالنظر إلى افتقار المصادر الفكرية للتحليل النقدي للخطاب إلى التجانس، تعد ندرة النقاش داخل دوائر التحليل النقدي للخطاب بخصوص وجاهة تلك المصادر وانسجامها مبعث استغراب. وكما أشار (سليمبروك Slembrouck ٢٠٠١: ٤٠ – ٤١): «يستمر التحليل النقدي للخطاب في عدم الوضوح المتبنى بخصوص الأفضلية الممنوحة لنظرية اجتماعية معينة». ففي واقع الحال، يبدو أن التوجهات على امتداد السنوات الماضية قد وسَّعت القاعدة الفكرية التي تنطلق منها بدل تقليصها. فبينما يدعم فيركلاف (١٩٨٩) تصوره بشكل واسع بواسطة الماركسية الجديدة والمنظور الكرامشي للتحكم، الذي يعتبر أن «الحس المشترك» المطبَّع أداة ناقلة للإيديولوجيا والنص محل صراع. سيبني شولياراكي وفيركلاف (١٩٩٩) عشر سنوات بعد ذلك أجندة بحث ملتزمة بحوار مستمر بين الحداثة المتأخرة والحركة النسائية وما بعد الحداثة. هكذا يكون التحليل النقدي للخطاب قادرا على الاحتكام إلى مشهد من الأفكار حول المجتمع واسع ومتناقض، قائم على حشر مجموعة من المفكرين من ماركس مرورا بكرامشي وهوكهايمر إلى غيدنز Giddins، تنوع غزير من مقاربات اللغة والتواصل المستندة إلى باختين وفوكو وهابرماس وهاليداي، دون إدراك واع لضرورة تسويغ تلك الانتقائية أو مَنْسَقَة القاعدة الفكرية، عوض القيام بربط فضفاض للمصطلحات المنتقاة بالظواهر المقترنة بالحداثة المتأخرة، من قبيل الرأسمالية الاستهلاكية والتسويق وتحقيق وتقوية التحكم من خلال التلاعب الإيديولوجي. وفي واقع الحال، يذهب (ويس وفوداك ٢٠٠٢) خطوة إلى الأمام عبر إقرارهما بأن النظريات والبناءات المستوحاة من عدد من المفكرين الفلاسفة وعلماء

الاجتماع لا تعدو أن تكون مجرد أدوات، مثلما أن المقاربات اللسانية ينظر إليها على أنها أدوات توظف من طرف المحللين لملاءمة وضعية محددة: «للمرء أن يتحدث في هذا المقام عن توليف نظري لأدوات تصورية... والأدوات من هذا النوع هي مثلا: التشكيلات الخطابية عند فوكو، والهابيتوس عند بورديو، أو السجل والشفرة كما عرَّفها هاليداي وبرنشتاين» (٢٠٠٢: ٧). وإزاء قوة هذه التأكيدات، أشار مجموعة من النقاد إلى أن التحليل النقدي للخطاب يشتغل عادة في إطار العلاقة الوجاهية الناظمة للعلاقة بين منظومة الأفكار وعالم الخطاب، مستعملة منظومة الأفكار تلك لتفسير عالم الخطاب دون معالجة أي من هذه المصطلحات وفق شروطها الخاصة (سليمبروك ٢٠٠١). وفي واقع الحال، يفضي ذلك بنا إلى وضعية تصير بموجبها الحجج المستمدة من الفلسفة والسياسة وعلم الاجتماع غير موظفة بكيفية تجعلها تحظى برضى الخبراء في هذه التخصصات، كما أنه ليست الأسس المعتمدة في التحليل اللساني مؤسسة بشكل جيد بكيفية تجعلها تحظى باعتراف اللسانيين.

بالنظر إلى الوضعية السالفة، من الضروري العودة إلى المسألة المركزية أي ما إن كان الكم المتنوع من النظريات التي ينهل منها الباحثون في التحليل النقدي للخطاب نقطة قوة أم نقطة ضعف. بحسب بعض الكتّاب تعتبر مسألة اقتران النتائج المحصلة لدى الباحثين في التحليل النقدي للخطاب بمفاهيم سوسيولوجية وفلسفية متنوعة دليلا على صلابة الأساس الذي يرتكز عليه المجال. وسيكون مأسوف عليه، بحسب محاججتهم أن نحصر ممكنات التحليل النقدي للخطاب في إطار مدرسة تأويلية أو نظرية للغة أو للمجتمع محددة. والإحساس السائد لدى عدد من محللي الخطاب أن هذا الانفتاح دليل قوة وليس دليل ضعف. (شولياراكي وفيركلاف ١٩٩٩، ويس وفوداك ٢٠٠٢). وحتى في بدايات

التحليل النقدي للخطاب كان تأكيد (فيركلاف ١٩٨٩: ١٠) على أن المقاولة النقدية ليست: «مجرد مقاربة أخرى لدراسة اللغة (...) ولكن (...) توجه بديل لدراسة اللغة». وهكذا يعتبر التحليل النقدي للخطاب بمثابة المعبد الضخم الذي يمكن أن يأوي حشودا وافرة. غير أن هذه الوضعية لا تخلو من وجود نقادها في حظيرة التحليل النقدي للخطاب. فهذا فاولر يعلق بشكل أكثر سلبية (١٩٩٦: ٨ – ١٢) قائلا: «يبدو أن أي شيء يمكن عده تحليلا للخطاب (...) ثمة خطر المنافسة و خطر المنهاجيات غير الخاضعة للمراقبة التي يتم اجتلابها من خليط نماذج مختلفة في العلوم الاجتماعية». ونتائج الاشتغال في إطار انتقائي من هذا القبيل واضحة من بينها: الافتقار للانسجام وخلط غير تمييزي بين مفاهيم متنافرة وتطبيق غير نسقي للمناهج وهلم جرا. وهكذا، بغض النظر عن مسألة الصرامة الفكرية ثمة قضايا تستلزم حلا من قبيل التحديد الذاتي للتخصص والفهم الذاتي.

٢– وصف النص: نقد المنهجية:

سطَّر فيركلاف في كتابه: «اللغة والسلطة» (١٩٨٩) منهجية لتحليل النصوص مؤسسة على تقنيات كلاسية لتحليل الخطاب، تدين بالكثير لهاليداي واللسانيات الوظيفية النسقية. تعتبر الوجوه البارزة في نشأة وتكوُّن التحليل النقدي للخطاب من قبيل فاولر (١٩٩٦) وشوليارا كيوفيركلاف (١٩٩٩) أن إطار هاليداي يشكل الدعامة الفكرية لتحليلاتهم. تتمثل البنية العامة الموظفة في الإطار المعهود الثلاثي المستويات والذي يتحدد في كون اللغة تشتغل في المستوى الفكري (بناء وتمثيل التجربة في العالم) وفي المستوى العلاقي (قانون العلائق الاجتماعية) وفي المستوى النصي (إنتاج النصوص). تقرن اللغة المعاني بعباراتها المنطوقة والمكتوبة. وكل من المعاني والعبارات تتصل بظواهر خارج اللغة، وبشكل

أكثر تحديدا تتصل بالحياة الاجتماعية، إلى درجة أن: «ما هو اجتماعي مبني في النسيج النحوي للغة» (شولياراكي وفيركلاف ١٩٩٩:١٤٠). وبالنسبة إلى هؤلاء الكتاب يكفي أن يتفحص الباحثون بإمعان تحققات لغوية معينة (نصوص أو تفاعلات) كي يكتشفوا العلائق الاجتماعية التي تعكسها أو تصوغها أو تعيد إنتاجها، وهكذا يمكن أن يتعلموا شيئا بخصوص السياق الاجتماعي الذي تنغرس فيه تلك العلائق. وفي منظورهم يجب أن يكون تحليل من هذا النمط موضوعيا وصارما، ويمكن أن يطبق التحليل تقنيات متنوعة للبحث اللساني بدءا بالمناهج الكيفية المخصصة لتحليل الحوارات وصولا إلى المقاربات الكمية التي نعثر عليها في لسانيات المتون.

يبدو أنه لا غبار على الإطار اللساني والمنهجية التحليلية التي يزعم الباحثون في التحليل النقدي للخطاب استعمالهما. وإن كان كثير من الصخب النقدي الذي أثير حول التحليل النقدي للخطاب قد ركز على هذا الجانب تحديدا، قد يكون الإطار سليما وقد تبدو المنهجية واعدة، لكن في الممارسة يملك البحث في إطار التحليل النقدي للخطاب عيوبا منهاجية عميقة.

لا يكمن المشكل الجوهري في الافتقار إلى الوعي بالحاجة إلى الصرامة. لقد دافع (فيركلاف ١٩٩٢) في سياق مراجعته لعشرين مقالا منشورا في «الخطاب والمجتمع» على أن التحليلات المقدمة في المقالات كان بإمكانها أن تكون أكثر إقناعا، لأن اهتمامه بقي لصيقا بالخصائص النصية والتناصية. غير أن المراجعة التي قدمها ظلت مجانبة للصواب لأنه بدل شجب الافتقار إلى الصرامة اكتفى بإبراز أسفه على ضياع فرصة بلورة نتائج معينة، إلى حد أن: «التمرين برمته (...) يبدو مثل مجهود لبناء المجتمع المحلي بدل أن يكون بحثا من أجل تعزيز الفهم» (فيرشوين Verschueren 2001: 67). لقد تم رصد الافتقار

للصرامة العلمية، بشكل مماثل في عدد من المنشورات التي تزعم تطبيق التحليل النقدي للخطاب. فعلى سبيل المثال أشار (روجرز ٢٠٠٥: ٣٨٥) في معرض مراجعته لأربعين مقالا في حقل التربية منشورة إلى حدود سنة ٢٠٠٣ تستعمل التحليل النقدي للخطاب، إلى أن ربع المقالات لم تتضمن أي نقاش بخصوص النظرية اللغوية، بينما أحالت المقالات الأخرى على التحليل النقدي للخطاب واللسانيات الوظيفية النسقية ونظرية الخطاب، وفي كثير من الأحيان كان ذلك يتم بمصطلحات عامة، أما المناقشة المفصلة للدليل اللساني فلم ترد إلا لماما. ولقد أشار دارسون آخرون إلى أن المحللين النقديين للخطاب غالبا ما يؤكدون استعمالهم لمنهجية تخص إثنوغرافيا التواصل، لكنهم يفشلون في تقديم وصف للوضعيات أو الكيفيات التي يحصلون بموجبها على المعلومات وفق الصيغة المقبولة لدى الإثنوغرافيين أنفسهم (بلومارت 17 –14 :Blommaert 2001).

يجري الاعتراف بهذه النقائص المنهجية، وبشكل خاص ما تعلق منها بكيفية الحصول على المعطيات وبكيفية تأويلها. سيكون تركيزي هنا على كيفية حصول الباحثين في التحليل النقدي للخطاب على معطياتهم. وفي الفقرة التي تعقب الفقرة الموالية، سأوجه اهتمامي شطر مسألة التأويل، وكذلك مسألة استجابة القارئ المتعلقة بها.

من بين أكثر نقاد التحليل النقدي للخطاب جرأة في هذا المجال هو (ويدووسون Widdowson 1998، 2005). ففي معرض مراجعته لثلاث دراسات تمثيلية منشورة في ١٩٩٠، وضع أصبعه على ما اعتبره الطبيعة اللانسقية لبعض أبحاث التحليل النقدي للخطاب. يقتبس من (فاولر ١٩٩٦: ٨) قوله: «يذهب اللسانيون النقديون بعيدا بانتقائهم لأقل عدد من المفاهيم اللسانية من قبيل التعدية والتأسيم»، ويؤول ويدووسون هذا الكلام على المنوال التالي:

«ليس التحليل تطبيقا نسقيا لنموذج نظري، إنه إجراء يفتقر إلى الصرامة، وفي واقع الحال، هو ضرب من الترقيع الموضعي يأخذ من النظرية أي مصطلح ذي فائدة في المتناول» (ويدووسون ١٩٩٨: ١٣٦). ويمضي ويدووسون في اقتباسه لفاولر، وبخاصة تأكيده على أن المقاربات التحليلية الأخرى (نظرية الخطاطة، التحليل المعرفي...) يمكن توظيفها بشكل متكافئ وجلبها إلى حظيرة النموذج «النقدي»، وأي منهج يمكن أن يقوم بهذه المهمة طالما أن النتائج المحصلة جيدة.

راجع ويدووسون تحليلات التحليل النقدي للخطاب لعدد من النصوص المفاتيح بشكل مسهب، بغية تبيين ما يعتبره افتقارا للنزاهة في تطبيق المنهج. فبتركيز تلك التحليلات على وحدات معجمية محددة أو سمات نحوية (البناء للمجهول والتأسيم) تصل إلى نتائج معينة تخص الإيديولوجيا في النص. ويتساءل: هل يعتبر ذلك مشروعا؟ بما أن السمات المنتقاة قد تم انتقاؤها، في اعتقاده، بكيفية أكثر أو أقل عشوائية، لأن الباحث يدرك حدسيا أن تلك السمات يمكن أن تزوده بنتائج ذات دلالة إيديولوجية، فبالإمكان تجاهل بقية النص التي يمكن أن تحتوي معطيات متناقضة. ولا يستبعد ويدووسون إمكانية وجود سمات نحوية معينة (مثل البناء للمجهول) ذات: «التكافئ الإيديولوجي العالي» (١٩٩٨: ١٤٨). لكن في نظره لم ينجح المحللون النقديون للخطاب في البرهنة على ذلك، بل لم ينجحوا حتى في طرح مسألة كيفية البرهنة على ذلك. فيقترح أن تكون منهجية المتون حلا للمشكل، لأن قاعدة معطياتها أكثر اتساعا ومناهجها أكثر نسقية. إن نتائج دراسات من هذا النمط ستكون بمنأى عن «العشوائية»، و ستكون أقل انفتاحا على المحاباة والتحيز الملحوظ، وذلك تبعا لويدووسون، و تبعا لدراسات أنجزها (فاولر ١٩٩٦) و(فيركلاف ١٩٩٦) و(فان ديك ١٩٩٦) لا مناص من الإشارة إلى أن ويدووسون نفسه عجز عن أن يبرز بكيفية علمية

كيف أن «العشوائية» في انتقاء المعطيات حاضرة، مما يقوض وجهة نظره إلى حد ما. غير أن جوهر الفكرة التي مفادها أن محللي الخطاب مدعوون لاستنبات معايير موضوعية وتطبيق يراعي المنهجيات العلمية (مثلا، من خلال الانخراط في استعمال قاعدة معطيات نصية واسعة وأدوات المتون) قد استلهمتها الأعمال الحديثة التي أنجزها الدارسون في مجال التحليل النقدي للخطاب (أنظر أسفله). فنقد ويدووسون أكثر وجاهة عندما يُوَجه للأعمال المبكرة للتحليل النقدي للخطاب، وتحديدا للكتاب البريطانيين من قبيل فاولر وفيركلاف.

ولقد تمت الإشارة إلى مشكل هذا النزوع التحليلي المحتمل من قبل كتاب أمثال (تولان Toolan 1997) و(ستيبس Stubbs 1997) التي تمحورت حججهما حول فكرة أن التحليل النقدي للخطاب، على الأقل في بداياته، غالبا ما كان يخفق في مقاربة النصوص بكيفية نسقية. دافع ستيبس عن مقاربة مقارنة مؤسسة على قاعدة معطيات تمثيلية واسعة. لقد تناول مسألة المنهج من خلال معالجة ما يصطلح عليه كثير من محللي الخطاب بمستوى «الوصف». ففي التعريف الكلاسي عند (فيركلاف ١٩٨٩) يعني الوصف التحقق من القيم التجريبية والعلاقية والتعبيرية التي تتحقق في الكلمات والبنيات النحوية للنص، وكذلك ما يمكن ملاحظته من بنيات نصية ومواضعات تفاعلية. هكذا يختار عدد من محللي الخطاب أثناء الممارسة التركيزَ على سمة واحدة من السمات المذكورة، من قبيل استعمال البناء للمجهول أو التأسيم (فاولر وآخرون ١٩٧٩، فاولر ١٩٩١، فيركلاف ١٩٩٢ أ، ١٩٩٢ ب). فوفق منظور ستيبس، تعتبر كل المزاعم التي يسوقها محللو الخطاب المبنية على تلك التحليلات غير مؤسسة، لأن المنهجية المتبعة غالبا ما تكون انطباعية، أو لأن قاعدة معطيات النصوص ضئيلة ويتم تحصيلها بكيفية غير نسقية.

يحيل ستيبس على دراسة (فيركلاف ١٩٩٥) يزعم فيها أن اللغة العمومية (الكتابة الأكاديمية والنقاشات السياسية) أصبحت أقل رسمية. وجوهر نقد ستيبس يكمن في فكرة أن فيركلاف لا يقدم أي دليل كمي على زعمه، وبشكل خاص، ليس ثمة دليل كمي تعاقبي يبين درجة تصاعد اللارسمية. ففي الواقع، وإن كان زعم فيركلاف يبدو معقولا للوهلة الأولى إلا أن المناهج التي يستعملها للحصول على حجته غير مُفَسَّرة. والنتائج المحصلة لم تُطْرَح بالشكل الذي يسمح لأي شخص كان أن يواجهها. وفي واقع الحال، عندما نفحص دراسات التحليل النقدي للخطاب عن كثب، يظهر أن جزءا كبيرا من الحجة مشروط بعدد قليل من الكلمات (من قبيل كلمة «المقاولة» في فيركلاف ١٩٩٥). و يذكرنا بذلك ستيبس قائلا: «نادرا ما تحدد السجلات بالسمات الفردية، بل إنها تتشكل من حزم من السمات المترابطة التي تملك نزوعا كبيرا غير خاضع للصدفة في تواردها» (١٩٩٧: ٣).

إن كان من المستحيل أن نعمم بخصوص المناهج المستعملة في التحليل النقدي للخطاب، غير أن جوهر استدلال ستيبس يظل قائما، لأن بعض المحللين النقديين، وبشكل خاص في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي، كانوا يمرون مرور الكرام على قضايا الاتساق المنهجي، وقلما يقدمون أي تسويغ لمناهجهم. وإن كانت أعمالهم تنطوي على حدوس أصيلة، إلا أنها تفتقر للصرامة المطلوبة في البحث الأكاديمي. لقد أشار ستيبس إلى أن: «النقاش يقل بخصوص مدى ملاءمة حصر التحليل في شذرات مختصرة من المعطيات وكيفية تجميع قاعدة المعطيات، وما إن كانت تمثيلية» (١٩٩٧:٧). والأدهى، ثمة خطر في تقديم تلك الشذرات على أساس أنها تمثيلية دون تفسير لكيفية تأسيس تلك التمثيلية.

ليس تيبس معاديا، بشكل ملازم، للتحليل النقدي للخطاب، لكن مدار دليله حول عدم كفاية صلابة المناهج المستعملة، بما يجعلها مسوغة للنتائج التي يزعمون تحصيلها، وما يستتبع ذلك من النظر بارتياب إلى التأويلات والتفسيرات المقدمة. لا شك في كون البيان الذي صاغه ستيبس بخصوص صيغة صلبة منهاجيا لتحليل الخطاب كان متأثرا بخلفيته المعرفية ذات الارتباط بلسانيات المتون، لكنها ليست غير ذات أهمية. يقول: «ينبغي أن تكون تحليلات النص، ببساطة، أكثر تفصيلا. يجب أن تكون التحاليل مقارِنة بمعنى إخضاع النصوص الفردية لمقارنة بعضها بالبعض الآخر وبمعطيات المتون. لا ينبغي حصر التحليلات في شذرات من المعطيات المعزولة، يجب تجميع قاعدة معطيات واسعة قبل إجراء تعميمات تخص استعمالا نمطيا للغة. وينبغي دراسة مجموع واسع من السمات اللسانية، بما أن تنويعات الاستعمال اللغوي لا تحدد بسمات فردية، ولكن بحزم من السمات المتواردة، مما يستلزم استعمال المناهج الكمية والاحتمالية لتحليل النص والمتن» (ستيبس ١٩٩٧: ١٠).

في الواقع، تزامنت كتابات ستيبس مع بداية استشعار محللي الخطاب للحاجة إلى مقاربة أكثر نسقية تطبق على قاعدة معطيات للخطاب أكثر اتساعا وتمثيلية (فوداك وآخرون ١٩٩٠، فان دايك١٩٩٣، هويي Hoey 1996: 154، فوداك ١٩٩٦). ولقد بدأ تيار في التشكل يحتكم إلى منهجية المتون لمنح إطار منهاجي أكثر صلابة للتحليل النقدي للخطاب (موتنر Mautner 2001: 122، بارتنغتون Partington 2006: 267، باكر Baker وآخرون: 2008: 277 – 283). هاهو ذا فيركلاف نفسه، الذي كان هدفا لعدد من الانتقادات المبكرة المنصبة على مناهج التحليل النقدي للخطاب، قد نشر لاحقا دراسة للغة «المستخدم الجديد» تأسست على

كميات وافرة من المعطيات التجريبية، كما استدمجت أدوات لسانيات المتون واستعملتها بغاية تحصيل صورة أكثر تمثيلية (فيركلاف: ٢٠٠٠: ١٧).

وحتى نكون منصفين لفيركلاف وللتحليل النقدي للخطاب عموما، ينبغي أن نقول إن احتكام ستيبس لمرجعية لسانيات المتون جعلته منحازا للدراسات المؤسسة على قاعدة معطيات نصية واسعة، وبشكل خاص الدراسات التقابلية التي صُمِّمت للكشف عن السمات المائزة لمختلف الأنواع والسجلات باستعمال المناهج الإحصائية لإنشاء الدلالة. غير أنه يعتبر ذلك بعيدا عن أن يكون المسلك الأوحد لدراسة معطيات اللغة. فمن الخطأ، استبعاد المقاربات الكيفية في التحليل النصي، لأنه من الواضح أنها تمنح بديلا حيا للمنهجية الكمية التي لا تعوزها العيوب بدورها وعدم الاتساقات. وبالمقابل من الخطأ تجاهل نتائج التحليل النقدي للخطاب فقط لكونها لم يتم تحصيلها بالكيفية المطلوبة. يجب أن يكون التحليل الكيفي، مثلا، لقاعدة معطيات نصية صغيرة المسلك الوحيد لتحليل أنماط معينة من الخطاب، مثل خطاب سياسي محدد أو خطاب حزب معين.

لقد تبنى (فرسشويرن Verschueren 2001: 60) زاوية نظر مختلفة قليلا، مشيرا إلى الافتقار إلى تحليل مفصل للغة والتفاعل في بعض تحليلات المحللين النقديين للخطاب (مثلا، قدّم فيرسشويرن نقدا للتحليل النصي لدى شولياراكي وفيركلاف ١٩٩٩). استقرت ملاحظة فيرسشويرن بشكل خاص على النزوع نحو ترك مظاهر مهمة من النص التي لا تتماشى مع الإطار التأويلي. هكذا دفعت مراجعة فيرسشويرن لتحققات مختلفة لذلك النزوع الانتقائي إلى أن يخلص إلى أن عددا من النتائج المزعومة: «نتاج اعتقاد بدل أن تكون نتاجا لفحص تحليلي متأن، مما يترتب على ذلك مساءلة ملاحظاتهم ونتائجهم». يقبل فرسشويرن صلاحية المقاربة التحليلية الثلاثية المراحل لدى فيركلاف (الوصف

ثم التأويل والشرح، أنظر أعلاه)، لكنه يسلط الضوء على الكيفية التي ينتقل بواسطتها المحلل من المستوى الأول (الوصف) نحو المستوى الثاني (التأويل بمعنى موضعة النص كخطاب). فمن أجل تحقيق هذا الانتقال، يحتكم فيركلاف إلى ما يصطلح عليه بـ «موارد الأعضاء»(١٩٨٩: ١٦٧): «في هذه المرحلة من الإجراء يعتبر الوعي الذاتي وحده مميزا للمُحَلِّل عن المشاركين موضوع تحليله. يفعل المحلل نظير ما يفعله المشارك المؤول، لكن خلافا للمشارك المؤوِّل،يكون المحلِّل مَعْنِيا بتفسير ما ينجزه».

يقترح فيرسشوين أنه بإدماج فيركلاف لمصطلح «موارد الأعضاء» يكون قد تخلى عن مسألة الدليل التجريبي. تتساوى صلاحية تأويل المحلل مع أي تأويل آخر (تأويل المشاركين أنفسهم أو أي مشاهد)، ما دام التأويل متجذرا في نفس النمط من المعرفة العاملة المرتبطة بكيفية استعمال اللغة وبطبيعة المجتمع. غير أن مفهوم موارد الأعضاء، وكما أشار إلى ذلك سليمبروك Slembrouck، تؤثر علائق القوى الاجتماعية فيه تصوريا وتشوهه، ولذلك ليس هناك ما يضمن أن يكون متحررا من إعادة إنتاج أو من التلاعب الإيديولوجي.

وبحسب فيركلاف، عندما يتعلق الأمر بالتأويل يمكن للمحلل أن يَعْبُر بسرعة نحو المرحلة النهائية من التفسير. لكن بما أن التأويل يحتكم إلى موارد الأعضاء، يبقى الاختلاف الوحيد بين المشارك والمحلل في مستوى التفسير، هو أن المحلل قد يحتكم إلى نظرية اجتماعية لتأويل ما لاحظه. وفي ارتباط بهذه المسألة بالذات يعتقد فيرسشوين أن مزاعم التحليل النقدي للخطاب بتحقيق استبصارات تأويلية تتهاوى. وعلى حد تعبيره: «إن المطلب الواقعي الوحيد بالنسبة إلى التفسير هو توفر نظرية اجتماعية جيدة. لا شيء يذكر بخصوص البعد التجريبي المطلوب في عملية ربط المعطيات بالنظرية» (فيرسشوين ٢٠٠١: ٦٩). وفي

منظور بعض النقاد (سليمبروك ٢٠٠١) يكمن جوهر القضية في أنه ليس من المشروع الاحتفاظ بالاختلاف بين الباحث والمبحوث وحصر الاختلاف بينهما في مسألة النفاذ إلى نظرية اجتماعية.

لقد قدَّم فيرسشوين تحليلا مفصلا مبينا في تقديره كيف فشل فيركلاف(١٩٨٩) في التغلب، بشكل مُرْض، على البعد التجريبي، بمعنى أنه فشل في تقديم تحليل نسقي للنص صارم ومُرْض. ومؤدى جوهر نقده أن فيركلاف يقوم بعزل نصوص فردية من أجل تحليلها دون موضعتها في السياق الاجتماعي والتناصي الذي يجب أن تُقْرَأ في سياقه. فمثلا، يتناول فيركلاف سمة لسانية معينة، ولتكن مثلا التأسيم في تقارير الأخبار، مؤولا إياها باعتبارها مستعملة لغاية التعتيم على مسائل مرتبطة بالمنفذية، من أجل تجنب إسناد المسؤولية، غير أنه، وفي سياق قصة أو وضعية معينة، ومن خلال التقرير المقدم حول موضوع محدد من خلال قضايا متنوعة لنفس الجريدة، يكون الأمر واضحا بالنسبة إلى القارئ على من تقع المسؤولية بالضبط. والمسألة الأساسية عند فيرسشوين أن فيركلاف يفشل في موضعة النص في الوضعية التواصلية، ليضعه بذلك خارج السياق، متجاهلا المظاهر النصية غير المتوافقة مع توقعاته، مما يفضي إلى نتائج مشوهة.

يحلل فيرسشوين (٢٠٠١: ٦٠ – ٧٩) ظاهرة مماثلة وردت في معرض محاولة فيركلاف تحليل التفاعل الحواري. والمثال المدروس هنا متعلق بتفاعلين حواريين يخصان مقابلة بين طبيب ومريض، أحد التفاعلين « تقليدي» والآخر «بديل». وهكذا طبق فيرسشوين التقنيات النسقية للتحليل الحواري والتأويل التداولي مبينا أن النتائج التي يخلص إليها فيركلاف غير مؤسسة (فيرسشوين ٢٠٠١: ٧٠ – ٧١). ويرى أن فيركلاف يفرض إطارا تقابليا من الخارج يفضي

إلى تشويه المعطيات وتجاهل السمات التي لا تتماشى مع الخطاطة المحددة سلفا. وعلى المستوى المنهاجي يُعين فرسشوين نقيصتين أساسيتين: النقيصة الأولى تتمثل في تجاهل المظاهر العامة للسياق (من قبيل: هل لدى المريض مشكل محدد أم لا؟ هل يعرف الطبيب والمريض بعضهما البعض؟). وتتحدد النقيصة الثانية في التعامل مع العلائق الناظمة للشكل – الوظيفة باعتبارها قارة وثابتة، ويعتبر ذلك غير مقبول في التحديدات التداولية (فمثلا، يفترض فيركلاف أن الطبيب الأول يتحكم في عملية التفاعل من خلال طرح الأسئلة، لكنه لا يطرح إمكانية أن يكون الطبيب الثاني متحكما بمهارة من خلال التقليل من استجابات المريض، أو أن يكون الطبيب الثاني غير مهتم ببساطة بالمريض أو لا يبدي التزاما أو مسؤولية تجاه المريض).

لقد دافع فيرسشوين بلباقة عن مقاربة أكثر نسقية وموضوعية وانضباطا للتحليل الكيفي للإيديولوجيا في النصوص، مبنية على مجموعة من المبادئ المحددة المتعلقة بطبيعة قاعدة المعطيات المستعملة، وبالحاجة إلى استكشاف أفقي وعمودي للنص، وبالحساسية تجاه القضايا التداولية المرتبطة بعلاقة الشكل بالوظيفة، وبالانشغال بمسألة كون المعنى يجب أن يكون منبثقا بكيفية منسجمة من المعطيات وليس مفروضا من طرف الباحث، (ينظر: فيرسشوين ٢٠١١). وفي الواقع، يكشف ماضي التحليل النقدي للخطاب أن ممارسيه منحوا امتيازا أقل للضوابط المنهاجية، ولا يعرضون دائما آليات أبحاثهم بشفافية (روجرز وآخرون ٢٠٠٥).

يكمن الفشل الأساسي للمقاربات من نمط مقاربة (فيركلاف ١٩٨٩) في كونها تمنح للباحث ولمهارته التأويلية والتفسيرية دورا محوريا، وكما بيَّن (فيرسشوين ٢٠٠١: ٦٠ – ٧٧) لا يقدم فيركلاف أي رصد لكيف تصير مظاهر محددة في

النص حاملة لمعنى أو لآخر، هنا تكفي أحكام الباحث. ويبقى هذا الافتراض موضع شك ومساءلة طالما أن تسويغه يتم باستعمال لمفهوم ضبابي من قبيل: «موارد الأعضاء» (فيركلاف: ١٩٨٩: ١٦٧، فيرسشوين ٢٠٠١: ٦٨). وهنا أيضا، وبشكل خاص، يتم إخضاع افتراض فيركلاف للنقد، ومفاد افتراضه أن: «الوعي الذاتي وحده يميز المحلل من المشاركين موضوع تحليله»، لأن قراءات متعددة تصير ممكنة، ولأنه كذلك مسعى كل مقاربة أن تقدم شيئا أكثر صلابة، وليس مجرد انطباع ذاتي، وذلك من خلال إجراء منهجية صارمة مؤسسة نظريا. وكما أشار إلى ذلك (فيرسشوين ٢٠٠١: ٦٨ – ٦٩)، تعتبر مسألة المنهج والتأويل جدية لم تُحَل بشكل مُرْض في الأعمال اللاحقة لفيركلاف. فمثلا، أكّد (شولياراكي وفيركلاف ١٩٩٩: ٦٧) على أن التحليل النقدي للخطاب: «لا يدافع عن فهم محدد للنص، وإن أمكنه الدفاع عن تفسير محدد». ووفق منظور فيرسشوين، فالباحثان المذكوران بتبنيهما لهذا الكلام، يكونان قد تغاضيا عن أي زعم يخص تفضيل المحلل لفهم معين، وبالتالي تُنَحَّى جانبا الحاجة إلى الصرامة المنهاجية في مرحلة قراءة و«فهم» النص (فيرسشوين ٢٠٠١: ٦٩). يلتقي نقص عنايتهم بالأبعاد الإبستمولوجية والهيرمينوطيقية للتحليل النصي مع الإفراط في التأكيد على البعد النظري للتفسير. بَعد اقتباس فيرسشوين لتمييز فيركلاف (١٩٨٩: ١٦٧) بين المحلل كقارئ (متساويا مع موارد الأعضاء مثله مثل أي قارئ آخر) والمحلل كمفسر (وهنا، يعتبر المحلل أعلى مرتبة من القراء الآخرين لأنه يحتكم إلى نظرية اجتماعية)، أقول بعد اقتباسه ذلك يخلص إلى مايلي: «بعبارة أخرى، يعتبر المطلب الوحيد بالنسبة إلى التفسير هو وجود نظرية اجتماعية جيدة، ولا شيء يذكر بخصوص البعد التجريبي الذي يعتبر ضروريا لربط النظرية بالمعطيات. فبما أن النظرية مصاغة بشكل قبلي، ليس مصادفة أن النتائج المحصلة متنبأ بها، وثمة ثغرة تفصل التحليل النصي عن النتائج –حتى بالنسبة إلى

كثيرين من أمثالي مما يتقاسمون أجزاء واسعة من النظرية- عندما يتعلق الأمر بالدليل. تصير النصوص مجرد حوامل لما يفترضه المرء مسبقا. فبدل المضي من الوصف مرورا بالتفسير نحو اتخاذ موقف مع جعل التأويل في صلب كل مراحل الاستقصاء، يتم اتخاذ موقف وتهميش التأويل» (فيرسشوين ٢٠٠١: ٦٩).

تفضي هذه المسألة إلى قضية التأويل والتي تعتبر ذات ارتباط بمسألة استجابة القارئ. تتداخل مسألة كيف يمكن ويجب أن يؤول محللو الخطاب النص بمسألة كيف يفهم القراء النص. وبالرغم من كون كل هذه القضايا غالبا ما تثار عندما يتم تأويل المعطيات اللغوية الكمية، إلا أن المشكل يصير أكثر حدة عندما يُحصر التحليل في البعد الكيفي. وسنتناول هذه القضايا مجتمعة في الفقرة الموالية.

٣- القارئ والنص: التلقي والاستجابة:

لقد كانت مقاولة التحليل النقدي للخطاب في مستوى التأويل النصي موضوعا لسيل من الانتقادات. وفي الطرف الأقصى من الصورة، اتُّهِم المحللون النقديون للخطاب بما يمكن تسميته بالحتمية اللسانية الساذجة. لفت (ويدوسون Widdowson 1998: 136) الانتباه لتفسير اقترحه (كريس Krees 1996: 25): «هذا النوع من السمات السيميوطيقية للمصادر التمثيلية تقترح وتستلزم، وأود أن أقول إنها تنتج، على المدى البعيد استعدادا خاصا ونظاما اعتياديا خاصا habitus، وبذلك تؤدي دورا في إنتاج نمط خاص من الذاتية».

يشبه ويدووسون مقاربة المحللين بـ«البراعة التأويلية التي تُقرَن عادة بالنقد الأدبي» (١٩٩٨:١٣٦). ففي منظوره سقط محللو الخطاب بدون قصد في استعادة: «التصور النقلي للمعنى، حيث تعتبر الدلالة انعكاسا للدلالة اللغوية»(١٩٩٨:١٤٢).

وتأسيسا على ما سلف، استهدفت مجموعة من الانتقادات فهم التحليل النقدي للخطاب للعلاقة بين النصوص والقراء. فبعض الكتاب تعرفوا في التحليل النقدي للخطاب على ما سمونه: «التصور الوورفي Whorfian Notion الاعتيادي للحتمية اللغوية» (ويدووسون ١٩٩٨: ١٣٩). لكن ليس في صيغته الأصلية حيث تحدد الشفرة اللغوية سيرورات التفكير الاعتيادي لمستعملي اللغة، ولكن في صيغته الموسعة حيث تنتج الخطابات وتشرط وتُقيِّد السيرورات الفكرية للمتلقي/ المستعمل. لا مشاحة بخصوص افتراض وجود علاقة دالة بين الخطاب ونظرة الجماعة للواقع. غير أنه من البدهي، في عالمنا المعولم يتعرض الناس لخطابات مختلفة ويتعلمون كيف ينتقلون بينها، متجاهلين عددا منها، يقبلون بعضها ويرفضون البعض الآخر، وبالرغم من الحقيقة الواضحة لهذا التصور، إلا أن كثيرا من أبحاث التحليل النقدي للخطاب تُبنى على أساس وجود علاقة أحادية وبسيطة بين النص وقارئه، أو بين الخطاب ومتلقيه. ولكم كان سيكون الأمر أكثر واقعية ودقة لو تَمَّ الإقرار من الخارج بوجود خطابات أكثر قوة وتأثيرا مقارنة بخطابات أخرى، ولو تم تركيز الاهتمام على تلك الخطابات ذات التأثير على الجمهور الواسع. أو لم تمت محاولة تحديد العوامل التي تجعل ذلك التأثير ممكنا.

من بين المشاكل التي تواجهها هذه المقاربة أن الاستدلال فيها دائري. فمن الممكن دعم فكرة كون استعمال اللغة يحدد معرفيتنا Cognition، لكن هذا الزعم يضعف إذا كانت الحجة الوحيدة التي بحوزتنا بخصوص المعرفية مقترنة باستعمال اللغة فقط. لن يعوزنا الصدق إن قلنا إن اللغة تمثل وتؤثر في السيرورات المعرفية، لكن يجب أن نكون حذرين عندما نحاول استخلاص نتائج تخص الفكر انطلاقا من اللغة، والعكس صحيح. فوفق منظور (ستيبس ١٩٩٧) إذا أراد الباحثون إصدار مزاعم بخصوص ما تفكر فيه الجماعة استنادا إلى ما يقرؤون

أو ما يسمعون، فيجب أن يحصلوا على حجة غير لغوية حول اعتقاداتهم، أو أن يفحصوا سلوكهم. وكما يقول (١٩٩٧:٦): «إذا كنا لا نتوفر على دليل مستقل، ونكتفي باستنتاج اعتقادات انطلاقا من استعمال اللغة، إذن فالنظرية دائرية». يقوم مقترح ستيبس على معضلات شتى، لأنه ليس من الواضح كيف يمكن للمرء أن يستخلص أفكار الجماعة ومعتقداتها بدون استعمال اللغة، كما أنه ليس مسألة ربط الخطابات بالدليل غير اللغوي من قبيل السلوك الملحوظ بالبساطة التي نخالها. غير أن نقده لا يخلو من وجاهة، لأنه ليس من المعقول أن نزعم وجود تأثير أحادي من الخطاب نحو الفكر، كما أن الأمر من الناحية المنهاجية لا يستقيم إن كنا نشتغل على المسألة كما لو كان ذلك التأثير لا يطرح مشكلا.

خصص بعض المحللين النقديين للخطاب، باتباعهم خطا مغايرا للمواجهة، حيزا مُعْتَبَرا لمناقشة الوسائل التي يعتقدون أنه بموجبها تؤثر النصوص في الناس، وذلك لتسويغ ممارساتهم التفسيرية (الهيرمينوطيقية). وهكذا طَوَّر (كريس ١٩٩٢: ٩١ – ١١٧) نظرية للتمثيل والتحويل التي اعتبرها الأداة التي بواسطتها تشتغل الخطابات من أجل تعديل وتغيير وجهات نظر الناس للواقع. تأسست نظريته في البداية على مصطلح التمثيل لدى هاليداي الذي يعني السيرورة التي يتم بموجبها تشفير الواقع فكريا. أما مصطلح التحويل فلم يتم اقتراضه من هاليداي، ويبدو أنه مرتبط تصوريا، وإن عن بعد، بمصطلح التحويل عند تشومسكي. وجوهر المسألة هو الإلحاح على الكيفية التي تتغير بموجبها التمثيلات، ومن الممكن أن يحدث ذلك نتيجة للتلاعب الإيديولوجي.

وكما أشار إلى ذلك (ويدووسون ١٩٩٨:١٣٨)، ثمة استدلال دائري في هذه المسألة كذلك، لأن التمثيلات بحكم تعريفها صيغ مشفرة للواقع، ومن

الصعب معرفة أي واحدة منها، يمكن عدها تمثيلات خالصة أو تحويلات. ويبدو أن الأمر يتعلق بنظرية للتغير اللغوي أو التغير الخطابي، غير أنه ليس واضحا تماما التأكد مما يمكن أن يكون قد تغير وماذا. ولهذه المسألة نظيرها، بشكل مثير للاهتمام، المتمثل في مسألة تصنيف اللغة الشعرية كانحراف عن اللغة العادية، كما تمت مناقشتها في (كوزيريو Coserieu 1980: 51). فمعلوم أن الانحراف مفهوم علائقي، ثمة شيء ما ينحرف عن شيء آخر، لكن من الذي يمكن أن يقول لنا ما الذي ينحرف عن ماذا؟ وهكذا، يمكن أن يحدث «انحراف» في الثروة من طرق مختلفة. وبالموازاة، يتأسس مفهوم التحويل على انشطار ثنائي، لكن ما من سبيل لمعرفة أي جانب متحول عن الآخر، أو ما إذا كان ثمة انشطار ثنائي أصلا، أو أن الأمر فقط مسألة مجموع إمكانات مختلفة. ووفق تفسير للتحويل قَدَّمه كل من (هودج وكريس Hodge and Krees 1993) اعتبر الكاتبان أن بعض أنماط البناء النحوي محايدة و «غير محولة»، وأنها وإن كانت تمثيلية غير أنها تفتقر لأية دلالة تمثيلية، إنها تمثيلات بريئة للواقع. لكن، بالمقابل، نجد بناءات أخرى مُحَوَّلة، والجمل المحولة: «تنطوي دائما على حذف و/ أو تشويه» (هودج وكريس ١٩٩٣: ٣٥). وعلى المستوى التطبيقي، وبشكل خاص الأعمال المنجزة في تسعينيات القرن الماضي، نكون بصدد تحويلات عندما تستعمل بنيات «أقل بساطة» من الناحية النحوية لنقل المعلومة، من قبيل البناء للمجهول. لكن، تبقى مسألة ما إن كان استعمال البناء للمجهول دائما ذا حمولة إيديولوجية أو فقط «أقل بساطة» من صورة «البناء للمعلوم» مسألة عالقة لدى الباحثين.

يتناول ويدووسون مسألة مصطلح التحويل عند كريس بطرق مختلفة. ففي البداية، يذكرنا أنه في إطار النموذج التشومسكاوي كل سلاسل الكلمات مُحَوَّلة

وقابلة للتحويل، وبالتالي لا وجود لعبارات محايدة أو بريئة أو غير محولة. فهذا النموذج لا يقدم أية منهجية للفصل بين العبارات المحولة وغير المحولة. ثانيا، يربط ويدووسون تصور كريس عن الجمل المحولة باعتبارها أكثر تعقيدا بالنظرية الاشتقاقية للتعقيد، وهي نظرية كانت بارزة في ستينيات القرن الماضي تأسست على فكرة كون التعقيد البنيوي يتمظهر في التعقيد النفسي وما يترتب عنه من مشاكل في المعالجة. وهكذا فالجمل المبنية للمجهول تقتضي مجهودا أكبر لمعالجتها، لأن الجمل المبنية للمجهول أكثر تعقيدا بشكل محايث مقارنة بمقابلاتها المبنية للمعلوم. تقتضي هذه النظرية مرة أخرى أن بعض البنيات أكثر تعقيدا من أخرى، وأن ذلك التعقيد يلقي بضلاله على القارئ/ المتلقي. غير أن هذا الزعم يناقض الدليل المتوفر في مجال المعالجة اللغوية. فعندما انبرت التجارب الحالية لتحديد سرعة وسهولة معالجة مختلف البنيات اللسانية، تبين أنه من المستحيل بالنسبة إلى الذوات فصل فهمهم للغة نفسها عن العوامل السياقية. مثلا، قارن (أولسون وفيلبي Olson and Filby 1972) زمن الفهم في معالجة القضايا المبنية للمعلوم والمبنية للمجهول وتبين لهما أن الأحداث أو الأسئلة عندما كانت تُشَفَّر من زاوية المنفذ تكون معالجة الاثباتات المبنية للمعلوم سريعة، خلافا لما هو عليه الأمر عندما تشفر من زاوية متقبل العمل، يُعالج البناء للمجهول بشكل أكثر سرعة. ففي تصورهم: «لا يقتضي بالضرورة فهم الجمل المبنية للمجهول استرجاع البنية الأساس الموافقة للبناء للمجهول بإرجاعها إلى صورتها المبنية للمعلوم، أو أن البنية الأساس فا- ف –مف ليس من المفترض أن تكون أساسا (...) لمعنى الجملة» (١٩٧٢: ٣٧٩). وفي تجارب أخرى (والس وكريف Wales and Grieve 1969: 3969: 327 – 332)، تبَيَّن أن الأفراد يفهمون بيسر البنيات المعقدة في سياق محدد، بعبارة أخرى، يميلون إلى تحصيل المعاني التداولية بدل الانخراط في تحليل لساني.

لا يبرز مصطلح التحويل في أحدث المنشورات في التحليل النقدي للخطاب، لكن مفهومه يشيع استعماله (شرودر Schroder 2002، كيييوناكامورا Kuo and Nakamura 2005، ستينفال Stenvall 2007، ينظر أيضا بيليغ Billig 2008: 35 – 46) من أجل نقاش مفصل بخصوص الكيفيات الممكنة التي بموجبها يكون البناء للمجهول والتأسيم ملغزا، بحيث يكون البناء للمجهول والتأسيم سببا لسلب المنفذية من جماعات معينة أو إخفائها، كل هذا بدون دراسة مستوفية للوظائف التداولية للبناء للمجهول في اللغة بشكل عام، أو تأثير ذلك أو عدم تأثيره في القارئ. وأخيرا، وكما أشار ويدووسون (ص ١٣٨– ١٤١)، بذكاء، يبدو أن مصطلح التمثيل ومقابله التحويل أو مصطلح اللغة البريئة ومقابلها التلاعب الإيديولوجي، يناقض إحدى ركائز التحليل النقدي للخطاب المتمثلة في فكرة أن كل ما في اللغة إيديولوجي ولا شيء فيها محايد. مما يقوض ثنائية التمثيل والتحويل ولا يترك أساسا قويا يمكن للمحلل أن يستند عليه.

كيف يمكن للمحلل إذن تأويل النصوص؟ وكيف يمكنه تثبيت الأثر الذي يتركه النص في قارئه؟ ليس المحللون النقديون للخطاب غير واعين بالمشاكل المثارة هنا، إنهم سرعان ما يؤكدون على أن المعاني الإيديولوجية لا تُقرَأ انطلاقا من السمات النصية، وينبغي التأليف بين التحليل النصي وتحليل ممارسات الإنتاج والاستهلاك (فيركلاف ١٩٩٥)، غير أنهم لا يقدمون سوى القليل من الحجج المتعلقة بهذه الممارسات، بل إنهم يستعيدون نموذجا هيرمينوطيقيا للنقل، حيث تنقل الصور اللغوية المعنى أو تبنيه.

ينطوي هذا النموذج ذاته على تناقض محايث، لأنه حتى المحللون النقديون للخطاب، غالبا، ما يقبلون أن تكون المعاني الإيديولوجية معتمة وغير شفافة، وينبغي انتزاعها بصعوبة من طرف محلل الخطاب، ويبدو أنه يتم توصيلها للقارئ

بيسر وأنها تمارس بحذق تأثيرا إيديولوجيا عليه. وهكذا، فالمعنى محتوى في النص في صورة أكثر تجذرا في العمق، وهو متراكب، ببراعة، داخل البنيات التركيبية والاختيارات المعجمية، وذلك المعنى نفسه المستعصي والمعتم على المحلل يُنقل إلى القراء ممارسا تأثيرا إيديولوجيا عليهم. وهكذا، فمسألة فهم استجابة القارئ يتم توليفها مع قضايا أخرى من قبيل النفاذ إلى السياق، والتي نوقِشت سابقا في هذا المقال، لأن إيلاء اعتبار أقل للسياق يجعل الطريقة التي يفهم بها ويؤول بواسطتها المشاركون أية وضعية يشاركون فيها مسألة معتمة وغير شفافة. وكما سبق لنا أن رأينا، يفضل الباحث موقفه لأن «موارد الأعضاء» التي بحوزته تتضمن نفاذا إلى النظرية الاجتماعية. إذن، فثمة: «خطر يترصده، يرتبط بفقدان إدراك التأويلات المنتجة والعفوية في عوالم الحياة» (سليمبروك ٢٠٠١: ٤٢)، أي ما يعتقد المشاركون في حدوثه في لحظات التواصل الحية.

لقد تناولت الدراسات الأدبية المسائل المرتبطة باستجابة القارئ والطرح التحليلي والإمكانات التأويلية باستفاضة. وعندما يتهم النقاد أمثال ويدووسون التحليل النقدي للخطاب بربطه التحليل بالتأويل، أو بالعثور داخل النص على ما حُدِّد سلفا (ويدووسون ١٩٩٨: ١٤٩)، فإنهم يحيلون على نظير هذه المسألة في النقد الأدبي، فالتحليل النقدي للخطاب هو «ضرب من الشعريات السياسية، ومرة أخرى نجد أنفسنا إزاء القضايا ذاتها المتعلقة بالمسوغ النصي للتأويل». وسيكون مفيدا القيام بفحص موجز للكيفية التي تم بموجبها رصد هذه المسألة في الدراسات الأدبية من أجل عقد مقارنات مثمرة مع التحليل النقدي للخطاب.

يعترف كل من ستوبس وويدووسون أن المسألة الهيرمينوطيقية في التحليل النقدي للخطاب تعكس بشكل آخر مشكلة النقد الأدبي واستجابة القارئ

التي كانت موضوعا لنقاشات حادة في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي. غير أن زعمهم بكون التماثل في المشكل مدعاة لتبني حل موحد هو زعم يجب إخضاعه للنقد. لنلخص بإيجاز، إن الحجج المطروحة في مجال الأدب بخصوص استجابة القارئ طُرِحت في إطار معارضة ضمنية لنظريات الأدب السابقة التي أعلت من شأن الكاتب أو محتوى وشكل العمل الأدبي، وشكلت معارضة صريحة للنقد الجديد والنظريات الشكلانية التي ألقت بمسألة القارئ في غياهب النسيان. وهكذا، تمحور طرح المدافعين عن مقاربات استجابة القارئ حول فكرة كون القارئ فاعلا نشيطا يكمل معنى العمل الأدبي بواسطة التأويل، ذلك المصطلح الذي استشعر بعض منتقديه أنه أفضى إلى ضرب من النسبية والفوضى. يستشهد ستوبس Stubbs بفيتش Fich (١٩٨٠: ٣٤١ – ٣٤٧)، الذي سعى إلى حل مشكل الطبيعة غير المتجانسة لاستجابات القراء من خلال الانتظام في الطرح الذي مؤداه أن النص لا يملك معنى خارج مجموع الافتراضات الثقافية المتعلقة بما يمكن أن يدل عليه وبكيف ينبغي تأويله. وهذه الافتراضات متجذرة في «الجماعة المؤولة» التي تؤسس بدورها معايير لقراءة نص معين بكيفية محددة، وتضع المعايير لما يمكن وما لا يمكن.

بالرغم من تماثل القضية المركزية المطروحة في نظرية استجابة القارئ مع مسألة التأويل المطروحة في التحليل النقدي للخطاب، إلا أنه ثمة اختلافات يجب إبرازها. أولا، تختلف الاستجابات المرتبطة بالعمل الأدبي، كما أنها أكثر تعقيدا ومتعددة المستويات مقارنة بالاستجابات تجاه النصوص اليومية ذات الطبيعة الإخبارية أو الأداتية، فبدل الاحتكام إلى نظرية استجابة القارئ التي تُطَبَّق عادة على الأعمال الفنية يمكن الاحتكام إلى مقاربات استجابة الجمهور التي تشكل عماد دراسات التواصل الجماهيري حيث يمكن أن تكون الأداة الناجعة لقياس

ما يفهمه الناس انطلاقا من نص معين، أو لتحديد القراءات المنحرفة التي يتم إنتاجها في سياقات اجتماعية محددة. وثانيا، وعلى فرض أننا قبلنا زعم التحليل النقدي للخطاب بكون الأنماط الغامضة والمعاني الخفية في الخطاب تمارس تأثيرا إيديولوجيا، سيكون التصور المؤسس على فكرة أن «الجماعة المؤولة» ذات أهمية في تحديد معنى الخطاب موضعَ شك، للاعتبار التالي: يمكن أن تكون الجماعة في موقع دعم الهيمنة، أو أن توجد مجموعة من الجماعات المؤولة المالكة لتأويلات مختلفة. غير أننا عندما نتعاطى مع نمط النص الذي عادة ما يكون موضوع دراسة في التحليل النقدي للخطاب، فإن الأمر لا ينحصر في التفكير في كيفية تأويل النص وهو ما تشتغل عليه الدراسات الأدبية، وإنما التفكير في كيفية قبوله واستعماله والتصرف فيه وتغييره ومحاكاته بشكل ساخر أو تجاهله. وبهذا الخصوص تمنح المصطلحات المألوفة لدى اللسانيين التطبيقيين من قبيل «جماعة الخطاب» أو «جماعة الممارسة» أدوات ناجعة لبلوغ فهم لكيفية اشتغال الخطاب في سياقات اجتماعية محددة (كينت Kent 1991: 425 – 445، لاف Lave وفنكر Wenger 1991: 22- 23). وكما لاحظ بهاتيا (Bhatia2002: 6)، إن إنجاز أوصاف مكثفة للممارسات التواصلية كما تجري في كنف جماعة معينة: «حري أن يكشف عددا من الأسرار المرتبطة بالكيفية التي يعمل بها أعضاء مختلف الجماعات الخطابية على بلوغ أهدافهم المؤسساتية والتزاماتهم وعلى تسويغ ممارساتهم الخطابية». لقد أبرزت دراسات حديثة (سارانجي وروبرتس Sarangi and Roberts 1999، كاندلينوهايلاند Candlin and Hyland 1999، أرمينين Arminin 2005) مدى تعقيد اشتغال السلطة واللغة في سياقات أكاديمية ومهنية. وثمة مجموعة كبيرة من الأبحاث في الدراسات الإعلامية التي أظهرت أن تأثير النصوص والمواد التي تعرض في الإذاعات على الأفراد هي أحادية الاتجاه بدرجة أقل أو أكثر تعقيدا

مما يمكن تصوره (أبركرومبي Abercrombie 1996، نايتينغال Nightin-gale 1996، ريس Reese وآخرون 2003)، لأن الناس يحملون قسطا كبيرا من المعارف القبلية والتقنيات التأويلية التي تُمكِّنهم من توليد طيف واسع من القراءات المتباينة. ينبغي الأخذ بعين الاعتبار هذا النوع من الدراسات والتوليف بينها وبين الأبحاث التحليلية للخطاب بقصد تحديد كيفية اشتغال الإعلام والمؤسسات والنصوص في سياقاتها الطبيعية.

بالرغم مما سلف ذكره، تظل مشكلة الحصول على بيانات تخص تأثيرات النصوص على القارئ أو المستمع من المشاكل التي لم تثرها أبحاث التحليل النقدي للخطاب إلا نادرا. كما أن مجموع الأبحاث في الدراسات الإعلامية أو إثنوغرافيا التواصل نادرا ما يشير إليها ممارسو التحليل النقدي للخطاب، وبشكل عام يمكن التأكيد على أن التحليل النقدي للخطاب يفتقر إلى نظرية مقنعة تخص التأثيرات على الجمهور واستجابة الجمهور التي يمكن أن تقدم سندا لتأكيداتهم عن تأثير الخطابات في الذوات البشرية.

٤– التحليل النقدي للخطاب والسياق: كثير جدا أم قليل جدا ؟

من بين الركائز الأساسية للتحليل النقدي للخطاب فكرة كون الخطاب متجذر اجتماعيا، فهو من جهة مبني اجتماعيا، ومن جهة ثانية يلعب دورا في بناء واستدامة (إعادة الإنتاج) البنيات والعلائق الاجتماعية. يعلن التحليل النقدي للخطاب عن التزامه الاجتماعي(فيركلاف وفوداك ١٩٩٧)، وله غاية معلن عنها تتمثل في تقوية وعي قرائه بكيفية إسهام اللغة في هيمنة بعض الناس على آخرين، لأن الوعي يشكل الخطوة الأولى نحو التحرر (فيركلاف ١٩٨٩: ١).

تعتبر اللغة منظورا إليها في الإطار الاجتماعي من الظواهر الأكثر تعقيدا لأنها تشكل وتتحدى العلاقات الاجتماعية في الآن نفسه، كما أن مختلف الوسائل الإعلامية اللغوية تتشابك مع بعضها ومع وسائل إعلامية غير لغوية منتجة شبكة معقدة من التناصات والتعددية الصيغية multimodality. ومن اللافت للنظر، أنه من الانتقادات الموجهة للتحليل النقدي للخطاب مسألة تجاهل المظاهر الاجتماعية للخطاب الأكثر تحديدا، وبشكل أخص السياقات الاجتماعية التي يندرج فيها الخطاب.

تشكلت الانتقادات المسائلة لمزاعم التحليل النقدي للخطاب بخصوص تقديمها لتأويل للعالم الاجتماعي في مجالات تحليل المحادثة من جهة وفي مجال إثنوغرافيا التواصل والتداوليات من جهة أخرى. تختلف هذه المقاربات بشكل جوهري عن التحليل النقدي للخطاب من جهة تشديدها على ضرورة اتباع مقاربة من الأسفل إلى الأعلى (بيس Peace 2003: 164). يستوجب كل من تحليل المحادثة والإثنوغرافيا اتباع تقنيات دقيقة لجمع المعطيات تتضمن استعمال تسجيلات صوتية ونسخ مفصل للنصوص، ويشترك كلا التخصصين في التزامهما بتصور مؤداه أن التأويلات يجب أن تكون نابعة من المعطيات. تهتم التداوليات بالوظائف التي تحققها اللغة في سياقات واقعية، مثلما تهتم بالعلائق المركبة بين الشكل والوظيفة الاجتماعية، كما تركز على الدراسة المفصلة للتحققات الخاصة لاستعمالات اللغة. على الرغم من دعوة ممارسي التحليل النقدي للخطاب إلى التثليث» بمعنى ضرورة صياغة منظورات متعددة للظاهرة موضوع الملاحظة (ريزغل وفوداك Riesigl and wodak 2001: 33 روجرز Rogers وآخرون 2005: 382، فان ديك Van Dijk 2006: 359، فوداك Wodak 2007: 2003)، أو دعوتهم، على الأقل «إلى مراوحة مستمرة بين النظرية والمعطيات» (ميير Meyer

2001:27)، غير أنه ثمة توجه ملحوظ في العمل المنجز في التحليل النقدي للخطاب للاشتغال بطريقة الانتقال من الأعلى إلى الأسفل، بمعنى افتراض نظرية محددة للعلاقات الاجتماعية، ثم النظر في المعطيات اللغوية انطلاقا من هذا المنظور، أو اقتطاع بعض مظاهر اللغة التي تتوافق مع منظور نظري معين، بدل الشروع في انغماس كلي في بحث معمق بقصد إجراء مسح للأبعاد المتعددة للنص لتحديد كيفية اشتغال اللغة في سياقات معينة.

يشترك كل من التحليل النقدي للخطاب وتحليل المحادثة في إيلائهما اهتماما للأحاديث الواردة في سياقاتها الطبيعية، سواء ما تعلق منها بالتفاعلات أو بالنصوص، كما يتفقان على أن للخطاب علاقة ثنائية الاتجاه بالسياق والبنيات الاجتماعية. غير أن تخصص تحليل المحادثة قد انبثق من خلفية فكرية مغايرة، كرد فعل على الاتجاهات السوسيولوجية الرئيسية. بالرغم من كون التعميمات قد تكون محفوفة بخطر التبسيط المفرط، إلا أنه وبشكل عام غالبا ما يجري الاتفاق على أن محللي المحادثة يركزون تحليلهم بشكل محصور على المحادثة في حد ذاتها ولا يأبهون بما حصل أو يمكن أن يحصل قبل التفاعل الحواري موضوع اهتمامهم. وهكذا شاعت تسمية هذا النوع من الدراسات بدراسة: «التفاعلات المصغرة» (روجرز ٢٠٠٥: ٣٧٨)، وبالمقابل يتوجه تركيز التحليل النقدي للخطاب على مجال أرحب بغية إدماج السياق الأكبر، أي الدور الذي يلعبه التفاعل في العلاقات الاجتماعية وبنيات السلطة المؤسساتية وهلم جرا.

وانطلاقا من مجال التداوليات، من النقاد مَنْ زعم أن التحليل النقدي للخطاب لا ينظر عن كثب دائما إلى السمات اللسانية للتفاعلات، بل ثمة نزوع تجاه القفز السريع نحو السياق الكبير، وذلك بواسطة صياغة إثباتات تخص كيفية ربط العلاقات الكبرى بالتفاعلات الصغرى (ويدووسون: ١٩٩٨).

وغالبا ما يتم التجاهل الكامل للسياق المباشر المحدد لنمط التفاعل في السياقات الاجتماعية (فيرسشويرن ٢٠١١). وبعبارة (فيرسشويرن ٢٠٠١: ٦٠)، يدل الافتقار إلى الصرامة المنهاجية، وتحديدا الكيفية التي تم بها إخراج السياق من المعادلة، على أن التحليل النقدي للخطاب،وتحديدا في بداياته الأولى، كان مسؤولا عن: «إخضاع الإعلام ومؤسسات أخرى لمحاولات بهلوانية مؤسسة على القفز والتلاعب السريع بالمعطيات موضوع الملاحظة من أجل دعم المزاعم المسبقة».

أثار الاتصال بالباحثين في التحليل النقدي للخطاب الذين كانوا يستعملون بعض تقنيات تحليل المحادثة نقاشا محتدما في أواخر التسعينيات. ومن أجل تلخيص أهم الحجج، نسوق منظور (شيكلوف Schegloff) الذي يرى أن السياق لا ينبغي أخذه بعين الاعتبار إلا إذا كان ملمحا محددا للتفاعل كمصدر اهتمام لدى المشاركين. وبما أنه بالإمكان أن تكون العوامل السياقية المؤثرة في تفاعل معين لانهائية العدد، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يصير ممكنا انتقاء عامل من العوامل باعتباره ملائما ووواردا من الناحية التحليلية؟ فمثلا، خذ التفاعل بين رجل وامرأة يمكن أن يتأثر التفاعل بينهما بمسائل النوع، ولكن يمكن ألا يكون الأمر كذلك، لأنه من المعروف أن مسائل النوع غير ذات أهمية بالنسبة للمشاركين في مناسبات معينة. ففي مثل هذه الحالة، هل من المشروع بالنسبة إلى الباحث المهتم بالنوع أن يفرض إطارا تحليليا على مثل هذا الضرب من التفاعل؟

في رأي شيكلوف، يجب الدفع بتحليل المحادثة إذا كان الحافز متمثلا في فهم كيفية اشتغال التفاعلات اليومية، وكيفية عمل الناس لمجموعة من الأشياء بواسطة اللغة في أوضاع مختلفة. ولأجل هذه الغاية، فالمقاربة التحليلية المناسبة

تتمثل في اكتشاف التوجهات التي يقدمها المشاركون أنفسهم والدور الذي تلعبه في التفاعل. وعلاوة على ذلك، حتى وإن تبينت أهمية بعض مظاهر السياق، يجب أن يكون المحلل متيقضا كي يتبين ما يمكن لهذه المظاهر أن تعنيه بالضبط في وضعية معينة، بدل القفز إلى خلاصات تستعمل مصطلحات واصفة من قبيل «النوع» أو «السلطة». وبعبارة (بوتر Potter 1998: 31): «يتم التعاطي مع السياق باعتباره شيئا يُبْنى ويُتَعامل معه ويُوَجَّهُ إليه بواسطة المشاركين. ولا يتم التعامل مع سمات المشاركين من قبيل أعراقهم أو سمات المحيط أو الخواص الإثنوغرافية كعوامل منفصلة». وكما أشار بوتر، يسير ذلك في منحى تذويب التمييز الكلاسي بين التحليل المصغر والتحليل المكبر، لأن الباحثين المنخرطين في هذا التقليد لا ينظرون إلى البنيات الاجتماعية باعتبارها شيئا يقع فيه التفاعل، لكن على العكس من ذلك تنظر إلى التفاعلات الاجتماعية كدليل على الكيفية التي تتشكل وتتَكوَّن بموجبها الظاهرة الاجتماعية.

وعلى الرغم من بداهة الفكرة التي مفادها أن الباحث في العالم الحقيقي لا يمكنه مقاربة المعطيات بدون تصورات قبلية، غير أن شيكلوف لا يفتأ يوصي الدارسين بضرورة أن تكون تحليلاتهم متجذرة في التفاعل ذاته، من خلال التركيز على الأشياء المتعلقة بالمشاركين. وبتعبيره: «يعتبر هذا القيد مفيدا في التحليل، وذلك بجعل العمل منتظما في سلك الاشتغال على الانشغالات الأصلية لليومي في عالمنا، والتي يجب الإمساك بها، ومن شأن ذلك أن يشكل حاجزا أمام الهيمنة الإمبريالية المحتملة الأكاديمية والنظرية، التي تفرض اهتمامات المثقفين على العالم دون احترام لمصدرها الأصلي». بالرغم من قيمة اهتمامات شغلوف، غير أن حدود تطبيقها مجتمعة على التحليل النقدي للخطاب تبقى موضع مساءلة. فدفاع شغلوف عن مقاربة معينة، تتجسد في تحليل المحادثة والدراسات

الإثنوغرافية حيث لا يتم إقحام المقولات الخارجية في أجندة البحث، لا يعني بالضرورة عدم صلاحية المقاربات الأخرى الموظفة لمقولات خارجية مقحمة. وهكذا، يحتكم المحللون النقديون للخطاب إلى مناهج متعددة، منها ما كان ذا صلة بتحليل المحادثة، ولا يوجد أي سبب يسوغ بشكل محايث ضرورة قبولهم لسلسلة من الافتراضات أو المبادئ، وذلك بسبب استعمالهم لمظاهر من منهج معين. يحدد (فان ديك ١٩٩٩: ٤٦٠) المسألة التي تعتبر مثار خلاف في قضية «التسييق»، مدافعا عن مشروعية فحص التحليل النقدي للخطاب للنص والسياق بشكل منفصل، ثم بعد ذلك المرور نحو استكشاف كيفية تأثير سمات السياق في النص أو كيفية تأثرها به. وهكذا فضمن مهام الباحثين تحديد بأي معنى تكون مقولات خارجية معينة ذات أهمية في التفاعل، كما أنه على الباحثين في التحليل النقدي للخطاب ألا يتقيدوا بمعايير تخصصية صارمة.

ومن منظور مغاير، من الممكن نقد التحليل النقدي للخطاب بسبب فشله في أخذ السياق بعين الاعتبار، نظرا لتركيزه الدائم على متون لغوية منتزعة من سياقها، بحيث يُحَلَّل النص أو أجزاء منه دون أَبْه بإنتاجه أو توزيعه أو استهلاكه. وثمة دارسين آخرين، وبخاصة إثنوغرافيي التواصل أثاروا مسألة ضرورة تناول السياق بشكل جدي، بما أن النصوص متجذرة في السياقات الاجتماعية ولا يمكن فهمها دون تعميق النظر في شبكة العلاقات الاجتماعية التي تشكلت في كنفها. وفي مجالات من قبيل التربية، تم تجاوز هذه النقائص إلى حد ما، بما أن عددا من الدراسات الحديثة تمزج مقاربات التحليل النقدي للخطاب بأنماط من المنهجيات الإثنوغرافية للحصول على معطيات كيفية مأخوذة من مصادر متنوعة من قبيل الملاحظات الميدانية أو أشكال أخرى من الملاحظة مثل الوثائق أو الاستجوابات أو مجموعات الاهتمام (روجرز وآخرون ٢٠٠٥). غير أنه في مجال

الدراسات الإعلامية والذي يعد ذا صلة وطيدة بالتحليل النقدي للخطاب في عدد من المناحي، هناك انتباه أقل للسياق، وذلك جزئيا، لأنه يصعب تحديد ما يعنيه السياق، مثلما يصعب تعيين ورصد القراء أو المشاهدين، ويصعب كذلك الحصول على أوصاف دقيقة للكيفية التي تُنْتج بواسطتها النصوص الإعلامية، وهلم جرا. ومع ذلك، وعلى غرار الهيرمينوطيقا والتلقي، يشتغل الممارسون في التحليل النقدي للخطاب بواسطة بناءات ساذجة حول الكيفية التي تشتغل بموجبها النصوص الإعلامية مقارنة باشتغال المتخصصين في مجال الإعلام الذين تُعتبر بالنسبة إليهم مسألةُ تحليل استجابات الجمهور أو السيرورات الإنتاجية مسألةَ ضرورية لإجراء البحث.

يمكن لنا أن نخمن قائلين إن مظاهر القصور المعروضة أعلاه تعتبر نتاج المقاربة الإيديولوجية للتحليل النقدي للخطاب، المتمثلة في غلبة الاهتمام بالسلطة في المجتمع، مما يجعل دعاة التحليل النقدي للخطاب مشدودين نحو تعيين بعض المظاهر النصية التي تعكس أطروحاتهم الأساسية، ثم بعد تعيينها ينتقلون مسرعين نحو مرحل التأويل والتفسير، وذلك بدل تكريس مزيد من الوقت من أجل فحص مضن للغة نفسها أو استكشاف السياق المباشر المحيط بالنص. ففي منظور بعض الكتاب (فيرشوين: ٢٠٠١)، يُفضي ذلك إلى استدلال دائري، وينتج خلاصات ليست سوى مجرد تأكيد لما يعتبر بديهيا. لقد سارت أبحاث التحليل النقدي للخطاب في ثمانينيات القرن الماضي نحو تأكيد الاكتشاف الذي مفاده أن وسائل التواصل الجماهيري تعيد إنتاج إيديولوجيا الوضع القائم. لكن بالنظر إلى نظرية المجتمع التي يتبناها معظم الباحثين في التحليل النقدي للخطاب ليس ذلك مدعاة للاستغراب. هكذا يدفع الاهتمام المفرط بالمقولات الإيديولوجية على حساب المتغيرات السياقية بالباحثين نحو

تجاهل ما يعتبر خاصا ومميزا في التحققات الخاصة لاستعمال اللغة، وذلك لصالح الأنماط الكبرى macro patterns التي تؤكد افتراضات الباحث الأولية. المسألة محسومة، لكن النتيجة تافهة، ففي منظور فيرشوين:» إن تقديم الأنماط المتنبأ بها باعتبارها اكتشافات يصرف النظر عما ينبغي أن يحظى بالاهتمام أي المسائل المتعلقة بالكيفية التي تُسْهِمُ بها تلك الأنماط في إنتاج المعنى» (٢٠٠١: ٦٣)، وهكذا فمن خلال القفز عما يمكن تسميته ب»الأعراض» (السمات المعتبرة لظاهرة معينة) نحو السياق الأكبر macro context، نتعلم الشيء القليل حول كيفية تملك الناس أو مقاومتهم للخطابات المهيمنة أو حتى كيف يتم تفعيل enacted هذه الخطابات على الصعيد المصغر micro scale.

من بين السمات المائزة للاحتكام إلى البنيات الكبرى في بعض أبحاث التحليل النقدي للخطاب هو ذلك النزوع نحو التعميم وصياغة الصور النمطية. يشير (بلومارت Blommaert 2001: 15) إلى ميل المحللين النقديين للخطاب إلى الاشتغال انطلاقا من تصورات جاهزة متعلقة بالفاعلين الأساسيين في سياق معين، من بين هذه التصورات: «السياسيون مناورون، أو وسائل الإعلام آلات لإعادة إنتاج الإيديولوجيا»، وكذلك بعض البناءات السوسيو- نظرية النمطية من قبيل «العمل» و «المؤسسات» أو «الطب التقليدي». ويدافع بلومارت عن مقاربة أكثر انضباطا تأخذ بعين الاعتبار السمات السياقية التي ينبغي أن تتضمن ثلاثة مظاهر يعتقد أن التيار الرئيس للتحليل النقدي للخطاب قد تجاهلها، والمظاهر الثلاثة عنده هي: المصادر ومسارات النص والمعطيات التاريخية.

وباختصار، تعني المصادر عنده مجموع الوسائل السوسيولسانية والمهارات التواصلية التي يحتكم إليها المشاركون في وضعية معينة. ويعد ذلك حاسما، لأن: «أهمية المصادر تكمن في العلاقة العميقة بين اللغة والاقتصاد العام للرموز

والوضعية في المجتمعات» (بلومارت ٢٠٠١: ٢٣). فاللغة نفسها تفضي بنا إلى صلب البنية الاجتماعية، لأن المصادر اللسانية مربوطة بشكل محايث بتوزيع السلطة، غير أن المصادر من هذا النمط ليست منظورة للبحث في التحليل النقدي للخطاب، لأنها ليست سمات تخص نصوصا فردية، وإنما لا تُفْهَم إلا بموجب تحصيل معرفة بالبنيات الاجتماعية وبالطريقة التي تشتغل بها اللغة في المجتمع. أما تصور «مسارات النص» فيحيل على الطريقة التي يتحول بموجبها الخطاب عبر السياقات، فمثلا يصير استجواب عبارة عن «مجموعة من الملاحظات المدونة»، وبعد ذلك يصير «دراسة حالة»، ومن المحتمل أن يكون جزءا من «مقال مراجع». ومرة أخرى، ينزع كثير من دارسي التحليل النقدي للخطاب نحو تفضيل التركيز على تحققات فردية أو أجناس بدل اقتفاء آثار «التاريخ الطبيعي» للخطابات عبر مجموع الأوضاع (السياقات) وأنماط النص، مما ينتج منظورا منحرفا، أو في أحسن الأحوال صورة مبتورة غير مكتملة. وبالرغم من وجود استثناءات محترمة، بشكل خاص مع مدرسة فيينا للتحليل النقدي للخطاب، حيث تم تبني منظور واسع من أجل تغطية مجموع تمثيلي من الأنماط النصية عبر مسار زمني معتبر (ينظر على سبيل المثال: فوداك ٢٠٠١، ريزيغل ٢٠٠٧: ٣٤). إنها مقاولة في غاية التعقيد وليس كل محللي الخطاب بقادرين على الاشتغال في هذا الصعيد الطموح. وأخيرا تحيل «المعطيات التاريخية» إلى التجميع المتبع للمعطيات والتي يجب أن يتم تسجيلها بعناية في المنهجية الإثنوغرافية، أخذا بعين الاعتبار آثار الملاحظة والتحيزات المحتملة للملاحظ. ومن المنطقي بما فيه الكفاية، أن يتضمن ذلك رصدا لموقف الباحث من القضايا السياسية محل النقاش، وليس مجرد تموضع عام باعتباره منتميا «للجناح اليساري» أو «الراديكالي»، والتي تعتبر بشكل ملحوظ مقولات ضبابية ومفتوحة على تأويلات متعددة.

يَخْلُصُ بلومارت إلى ملاحظة مفادها أن عددا من المشاكل المرتبطة بالتحليل النقدي للخطاب تعزى إلى الدور المركزي الموكول إلى النص في تقليد التحليل النقدي للخطاب، فبالرغم من دعوة باحثي التحليل النقدي للخطاب إلى تأويل المجتمع عبر النص، غير أنهم غالبا ما ينتهون في نهاية المطاف إلى مجرد تأويل للنص. إذا نظرنا إلى المسألة بشكل مغاير، واعتبرنا الخطاب بمثابة ظاهرة مموضعة اجتماعيا داخل سياق يتضمن اللغة والعلاقات الاجتماعية وبنيات السلطة وهلم جرا، سيكون بالإمكان، حينئذ، الاقتراب من طموح: «تفسير المجتمع من خلال منفذ الخطاب» (٢٠٠١: ٢٨).

مهما يكن، يبدو من الصائب القول، باختصار، إن الطرح الذي يتبناه باستمرار التحليل النقدي للخطاب يعلي من شأن التأويل التفسيري بواسطة مقولات محددة بشكل قبلي تشكل مدار اهتمام الباحث. فبالنسبة إلى التحليل النقدي للخطاب ثمة ميل لاستعمال مفهوم السياق بدلالة السياق الأكبر macro context أي أنظمة السلطة التي تشتغل في المجتمع ككل، مما يعني حذف وتجاهل سمات السياق المصغر المباشر. تتباين هذه المقاربة المحفزة إيديولوجيا بشكل صارم مع المبادئ التي سطرتها بعض الحقول التحليلية ذات الصلة بدراسة اللغة.

٥- التحليل النقدي للخطاب باعتباره سلبيا:

يشدد ممارسو التحليل النقدي للخطاب بشكل متكرر على أن مقاولتهم تسعى أساسا إلى خلق عالم أفضل، محققة التغيير ومقوية المقهورين: «تعتبر غاية التحليل النقدي للخطاب سياسية بالأساس، حيث يشتغل ممارسو التحليل النقدي للخطاب على العالم من أجل تحويله، وبالتالي المساعدة على خلق

عالم يمحي فيه التمييز بين الناس على أساس الجنس واللون والعقيدة والسن والطبقة الاجتماعية» (كالداس- كولتهاردوكولتهارد Caldas- Coulthard and Coulthard 1996). غير انهم يعترفون بأن تلك الغاية نادرا ما تحققت: «لقد ظلت مشاريع النقد اللغوي منحصرة فيما يلي: نقد النصوص ونقد الممارسات الاجتماعية التي تستلزمها أو تتحقق في تلك النصوص، إضافة إلى تعرية وكشف الوضعيات غير المنصفة والمؤذية والمهينة للكرامة البشرية.... فإن كان على مشاريع النقد اللغوي أن تطور نظريات معقولة لمجالها، يجب أن تكون قادرة على التحول من القراءة النقدية، ومن التحليل، ومن النشاط التفكيكي إلى النشاط الإنتاجي...وهكذا لم يقدم النقد اللغوي أو التحليل النقدي للخطاب رصدا مثمرا لأشكال بديلة من التنظيم الاجتماعي أو الموضوعات الاجتماعية» (كريس ١٩٩٦: ١٥ – ١٦).

فبالنظر إلى الافتراضات التي يقدمها التحليل النقدي للخطاب حول طبيعة المجتمع، وبالنظر كذلك إلى الاهتمام المفرط بعرض التلاعب الإيديولوجي الذي يشكل ويمنح استمرارية للاتوازنات من خلال الخطاب، ليس من المستغرب إذن أن يجد علماء اللغة في مدرسة التحليل النقدي للخطاب مسألة التفكيك سهلة مقارنة بمسألة البناء. لقد لفت مارتان في مقال له يدعو من خلاله إلى أعمال أكثر إيجابية في تحليل الخطاب انتباها خاصا إلى الجوانب السلبية للتحليل النقدي للخطاب، واضعا التحليل النقدي للخطاب ضمن: «الاختلالات المرضية في القرن العشرين التي تشهدها الأبحاث في العلوم الاجتماعية والإنسانية التي تسقط من مهامها دراسة السيرورات الاجتماعية التي تجعل العالم مكانا أفضل، وذلك لصالح نقد العمليات التي تقمع أو تجرد من السلطة» (٢٠٠٤: ١٨٦). ودعا إلى تقديم محاولة أكثر جدية من أجل إعادة تشكيل التحليل النقدي للخطاب

بمعنى أكثر إيجابية. ويعين هذا النمط من التفكيك السلبي باعتباره الجانب المهيمن للتحليل النقدي للخطاب، ويصطلح على هذا الجانب المهيمن بـ «التحليل النقدي للخطاب المحقق» الذي ينشغل على نطاق واسع بمسألة «جعل اللغة والسيميوزيس المصاحب لها في خدمة السلطة» (٢٠٠٤: ١٧٩). غير أنه أشار إلى أن للتحليل النقدي للخطاب مظهرا آخر ثانويا موجها نحو الفعل الاجتماعي البنَّاء والذي يسميه بـ «التحليل النقدي للخطاب غير المحقق»، وهذا المظهر نادرا ما تم وضعه موضع تنفيذ. ففي منظور مارتان: «نحتاج إلى تركيز تكاملي على الجماعة، مع الأخذ بعين الاعتبار كيف يجتمع الناس معا، ويجعلون لأنفسهم مكانا في العالم، وكيف يعيدون توزيع السلطة بدون صراع بالضرورة ضدها» (٢٠٠٤: ١٨٦). سيركز «التحليل الإيجابي للخطاب» على كيفية حدوث التغيير نحو الأفضل، وينظر في كيفية تغلب الشعوب الأصلية على تراثها الاستعماري، وكيفية محو التمييز الجنسي وتشييد علاقات جديدة بين الجنسين. فمن خلال دراسة مثل هذه الظواهر، يمكن أن نتعلم الشيء الكثير عن كيفية حدوث التغيير الإيجابي، وسنكون في موقع أفضل لدعم التغيير في المستقبل.

على سبيل المثال، وَثَّق مارتان البحث الذي أنجزته الحكومة الاسترالية حول إرغام تبني أطفال السكان الأصليين، الشيء الذي يعتبر بحق مبتكرا في إطار جنس التقرير البيروقراطي حيث يبرز صوت الضحايا. وبموازاة ذلك، رسم أدوار السرد والأدبيات البيوغرافية في السمو بوعي الناس بالظلم وفي تغيير رأي العامة. ويكمن استياء مارتان من وثوقيات التحليل النقدي للخطاب في تأكيده على مفترض مفاده: «أنه يمكننا الذهاب بعيدا باقتراحنا لعشر سنوات من التحليل النقدي للخطاب القائم على التفكيك كي نحصل في نهاية المطاف على بعض الممارسات التحليلية للخطاب ذات القيمة البناءة» (٢٠٠٤: ١٩٩).

وعلى المنوال ذاته، يزعم (لوك Luke 2002: 98) أنه إن أراد التحليل النقدي للخطاب أن يطور إمكاناته كاملة، فعليه أن يذهب أبعد من النقد الإيديولوجي، وأن يستكشف ما يسميه بـ «الاستعمال المنتج للسلطة»، والخطاب التحرري، بعبارة فريرن Frerean. وعلى غرار مارتان يؤكد على أنه: «إن كان التحليل النقدي للخطاب الصيغة المعيارية للعلوم الاجتماعية وللفعل السياسي، فعليه أن يكون قادرا على البرهنة على ما ينبغي أن يكون، وكذلك على ما يعتبر إشكاليا» (٢٠٠٢: ١٠٥). وإذا لم يفعل التحليل النقدي للخطاب ذلك، فإنه بحسب زعمه سيظل حبيس أنموذج حتمي سلبي، تكون بمقتضاه كل وسائل الإعلام أشكالا من التحكم الإيديولوجي المركزي، وكذلك لممارسي التحليل النقدي للخطاب الدور التنويري للمثقف الكرامشي الذي يسعى إلى توعية وتعبئة الناس لمواجهة التحكم. وبما أن هذا التمثل لا يخلو من اختزالية (وينبغي أن نضيف إلى ذلك افتراضه لمسلمات قابلة للمساءلة حول طبيعة الجمهور وآليات اشتغال وسائل الإعلام)، لذلك يقترح «لوك» ضرورة طرح تحليل نقدي جديد للخطاب ذي توجه إيجابي، مداره خطابات الأقليات وأصوات الشتات والخطابات المضادة الناشئة، وإعادة تأويل الخطابات الرئيسية من طرف جماعات مختلفة من الفاعلين واستراتيجيات المقاومة. ففي سياق العولمة، يمثل بقاء التحليل النقدي للخطاب منغلقا ومحصورا في التحليلات الجدلية للتفاوت الاقتصادي والقمع السياسي إخفاقا في ملامسة التشكلات الثقافية الجديدة والطرق الجديدة للتفاوض حول الهوية والخطابات المضادة الجديدة وأصوات المقاومة. فمن أجل إنجاز هذا التحدي، ومن منظور نظري، سيكون من الضروري التوقف عن التفكير بواسطة ثنائيات متجاوزة، ومن وجهة نظر منهاجية سيكون من الضروري البحث عن دليل وتطوير منهجيات ملائمة لاستكشاف الخطابات الجديدة والإعلام الجديد اللذين يميزان الحياة في القرن الواحد والعشرين.

٦- التحليل النقدي للخطاب باعتباره أرثودوكسية ثقافية:

بدأ التحليل النقدي للخطاب باعتباره صيغة ثورية للدراسة اللغوية. وذلك على الرغم مما سبق لنا الإشارة إليه بكون مصطلح «نقدي» متعدد الدلالة، هذا إن لم يكن مصطلحا فضفاضا، ومما لاشك فيه أن ما يوحد المستعملين لتسمية «التحليل النقدي للخطاب» في أنشطتهم هو الاعتقاد أن بإمكانهم انطلاقا من المعطيات التي بحوزتهم تطبيق تقنيات التحليل النقدي على النصوص والتفاعلات وعلى المجتمع الذي يستعملان فيه. وكما سلف الذكر، يعتبر نقدهم سياسيا في عمومه، واهتمامه منصب على قضايا السلطة واللامساواة. وفي البداية، من المؤكد أن التحليل النقدي للخطاب يبدو راديكاليا وجديدا، إنه مقاربة لدراسة اللغة تتحدى الأرتودوكسيات العتيقة باسم الالتزام الاجتماعي.

غير أنه، ومما لا مناص منه، وكما هو الشأن بالنسبة إلى أية حركة جديدة ناجحة من أي نوع في القرن العشرين حيث اكتسب التحليل النقدي للخطاب زخما من الاعتراف، فقد كان ثمة تحول تدريجي نحو أن تتعزز ركائزها وتحظى بالاحترام. ويزعم بعض الكتاب أن دارسي التحليل النقدي للخطاب منخرطون بهمة في محاولة لتشييد التحليل النقدي للخطاب باعتباره مقاربة ومدرسة قائمة الذات (فيرسشوين ٢٠٠١: ٦٧). ولقد وثَّقَ (بيليغ ٢٠٠٢) هذا التغيير ليرسم ما يمكن أن يعنيه ذلك بالنسبة إلى تخصص «ثوري» مدعو إلى مزيد من الوعي والنقد الذاتيين من ممارسيه.

لقد نبَّه (بليغ ٢٠٠٢) لاستعمال المختصر «ت ن خ» الذي حاز، بحسبه، مرتبة العلامة الأكاديمية. وفي منظوره تكمن الاستراتيجية البلاغية لدى الأكاديميين في النظر إلى مجموع إنتاجاتهم باعتبارها جزءا من مجموع مصادق عليه بضمانة

منظور نظري معين. تتحقق العلامة التجارية الكاملة لهذه النظرية غالبا بواسطة المختصرات (يستشهد بيليغ بمثال «ن هـ ج» نظرية الهوية الاجتماعية في علم الاجتماع، وبالموازاة نفكر أيضا في المختصر المستعمل في اللسانيات «ل ن و» اللسانيات النسقية الوظيفية)، فوفق منظور بيليغ، يسمح هذا النمط من الوسم للأكاديميين بتسويق أفكارهم: «كعلامات تجارية كاملة ومنتوجات ثقافية قابلة للتحديد في العالم الأكاديمي الراهن» (٢٠٠٢: ٤٢). ولقد غدت هذه الظاهرة شائعة في عالم أكاديمي تشتد فيه التنافسية ومحكوم بقواعد السوق. الآن، وقد أصبح للتحليل النقدي للخطاب موطئ قدم صلب في الجامعات له مجلاته، وله أعداد شاسعة من الأكاديميين الذين يتوافقون حول ركائزه الرئيسية، صار على بنية السلطة الأكاديمية والدارسين اختيار الانضمام إلى مراتبه من خلال القبول بمبادئه وافتراضاته المنهاجية، فاستنادا إلى مصطلحات السلطة الأكاديمية (من أجل نشر كتب أو مقالات أو إجراء تعيينات أو حصول على ترقية) يعتبر التحليل النقدي للخطاب اليوم مساويا لحقول دراسات اللغة الأخرى. لقد أصبح بالإمكان الإقرار، مستعملين مصطلحات ثقافية، أنه قد تأسس أنموذج نقدي وأرثودوكسية نقدية يمكن أن تكون بطريقتها الخاصة غير مرنة ووثوقية وإقصائية مثلها مثل وثوقيات الماضي.

علاوة على ما ذُكِر، لفت بيليغ الانتباه إلى الدور الذي يلعبه مصطلح «نقدي» في عملية الفهم الذاتي والتسويق الذاتي للتحليل النقدي للخطاب، ولقد أشار بيليغ إلى تاريخ استعمال كلمة «نقدي» من كانط مرورا ببياجي وبوبر دون أن ننسى مدرسة فرانكفورت (انظر أعلاه)، واقترح أن مكمن قوة هذا المصطلح تكمن في إلحاحه على الموضوعية والمصداقية الثقافية لمقاولة مستعمله، وفي تقويضه للمقاربات «اللانقدية» أو «غير النقدية» التي يتبناها دارسون

آخرون. وبشكل خاص، يسير التحليل النقدي للخطاب في منحى تأسيس فصل ثنائي بين توجه نقدي إيجابي ومقاربات لا- نقدية تعتبر ناقصة، وذلك من خلال إلحاحه على ضرورة توجه الأعمال الأكاديمية نحو نقد السلطة في المجتمع، بالإضافة إلى التمييز الذي تنشئه بين مقاربتها والتخصصات أو الأنموذجات التي تقصي فرضياتها النظرية والمنهاجية تحليلا سياسيا مباشرا. وهكذا لا تعتبر المقاربات اللانقدية مجرد بديل مغاير، بل لكونها لا تتبنى موقفا نقديا، فإنها بذلك تصطف إلى جانب خطابات الهيمنة، وهي مذنبة لكبحها النقد الاجتماعي اللازم، ومذنبة كذلك لتواطئها السافر، أو لتقويتها إعادة إنتاج النظام الاجتماعي غير العادل. وإن شئنا تقييم التحليل النقدي للخطاب نقديا، فعلينا أن نكون واعين بأن استعمال مصطلح «نقدي» في ذاته استعمال لا يخلو من دلالة حيث تم وَسْمُه بخاصية «بلاغة مديح الذات» (بيليغ: ٢٠٠٢: ٣٧). يمكن اعتبار هذا المظهر للتحليل النقدي للخطاب شكلا من التلاعب الإيديولوجي ووسيلة لإقصاء المنافسة (الأكاديمية). وكما أشار (بوتر ١٩٩٦) يتعامل التحليل النقدي للخطاب مع النزعة النقدية كما لو كانت مسألة ملازمة لمقاولته. وبمقتضى ذلك يكون تحليل الخطاب غير النقدي ناقصا، وإن كان هذا المقتضى لا ينتج بالضرورة عن الاختيار غير النقدي. وكما يقول (بوتر ١٩٩٦) ثمة حيز لأنماط تحليل الخطاب التي قد تفضي أو قد لا تفضي إلى نقد اجتماعي وذلك تبعا لما ينتج عن المعطيات. فليس ثمة حاجة لتحليل الخطاب أن يكون نقديا فقط من أجل أن يكون صحيحا وذا فائدة أو مثيرا للاهتمام، غير أن محللين آخرين للخطاب دافعوا بقوة عن ضرورة سن تحليل الخطاب لقواعده الخاصة كتخصص لدراسة اللغة، في ارتباط بمعايير صارمة وغير جزئية للتحليل والتأويل، وعلى أن الانشغالات الخارجية من قبيل المسائل الإيديولوجية ليست بالضرورة ذات صلة بالمقاولة (العلمية) (أنتاكي Antaki وآخرون ٢٠٠٣).

إلا أنه بالنسبة إلى المشتغلين في إطار التحليل النقدي للخطاب ليس النقد شيئا قد ينبع من تحليل النص، لأن النقد هو علة وجود التحليل بالدرجة الأولى. تبرز في إطار تقويم «بيليغ» لهذه الوضعية مجموعة من المسائل ذات الصلة بنقاشنا الحالي. بداية، هناك مسألة القانون المعتمد في النقد. وكما أسلفنا الذكر، تستوجب مسألة الأسس الفكرية للتحليل النقدي للخطاب النقاش في المجال نفسه. فانطلاقا من النقد الماركسي الجديد للمجتمع في ثمانينيات القرن الماضي، استطاع التحليل النقدي للخطاب أن يوسع آفاقه الفكرية من خلال استيعابه لصيغ متنوعة من التفكير السوسيولوجي. لكن ما يعد مميزا بخصوص هذه المسألة، إن اعتبرنا التحليل النقدي للخطاب «مدرسة» أو «مقاربة» في الدراسة اللغوية، هو تشديده على علم الاجتماع وعلى بعض الأعلام ذات التوجه «النقدي» المميز المستهدف للحداثة المتأخرة، مع مزج كل ذلك بتوظيف مفاهيم مقترنة بشكل عام بأنموذجات ما بعد الحداثة. وبغض النظر عن جدوى هذه الخلفية الانتقائية، فالنتيجة أن التحليل النقدي للخطاب يبدو أنه قد ثبَّت «قانونه النقدي المعتمد» المتشكل من: «أعمال راديكالية للتحليل الاجتماعي التي لم يُعتد بها من قِبَل اللسانيين التقليديين، وذلك بعدم جعلهم لها جزءا من اللسانيات» (بيليغ ٢٠٠٢: ٤٤)، والتي أصبحت اليوم نصوصا ثابتة للأجيال القادمة. ثمة خطر داهم، وهو أن يتم قبول هذا «القانون المعتمد» بكيفية «غير نقدية»، وهو أمر يبعث على القلق لتضمنه عدم توازن بين النظرية الاجتماعية والأعمال ذات الاهتمام باللغة والمنهجية اللسانية.

وتتمثل المسألة الثانية، ذات الصلة بالموضوع، في الافتقار إلى الحوار الداخلي والتفكير الارتجاعي والذي ينحو نحو توطيد أركان التحليل النقدي للخطاب من خارجه باعتباره أنموذجا فكريا يمتلك هرميته وأنظمة المراقبة الخاصة به،

لكن ذلك قد ينتقص من جدية مقاولته الفكرية. ويعتقد (بيليغ ٢٠٠٢) أن النقد الذاتي الذي يمارسه التحليل النقدي للخطاب ينحو نحو تجاهله للعوامل الرئيسة، وثمة قلق يساور «بيليغ» يتمثل في أن تزايد التقدير سينطوي على فقدان الإبداع الفكري. ويوصي بضرورة تراجع الباحثين الأكاديميين عن معاملة التحليل النقدي للخطاب كما لو كان منتجا ملموسا، أو علامة تجارية تُسِمُ أعمالهم كي تجد طريقها إلى النشر. ويدعو الباحثين إلى «الانفصال عن البلاغة التي أفضت إلى التحول من «المقاربات النقدية» إلى الإسم المختصر «ت ن خ» (بيليغ ٢٠٠٢: ٤٤)، كما يدعو إلى العودة إلى تحليل نقدي للخطاب (بدون تشديد الحروف الأولى) بكيفية تسمح بانبثاق مقاربات جديدة. وبتعبيره: «وقبل كل شيء، ثمة حاجة لتشجيع الباحثين الأكاديميين الشباب، وبشكل خاص من لا يملك منهم مواقع معترف بها، على نقد لغة وبلاغة الكتاب النقديين المعترف بهم، بل العمل على كشف الاهتمام الذاتي والاقتصاد السياسي لعلامة «نقدي». والحصيلة لن تكون مريحة بالنسبة إلى الخبراء النقديين، ولا ينبغي لها أن تكون كذلك إن كان يجب على فاعلية النقد الاجتماعي أن تمضي نحو المستقبل» (بيليغ ٢٠٠٢: ٤٥).

خلاصات:

يمنح التحليل النقدي للخطاب أنموذجا واعدا لتعيين وتأويل الكيفية التي تشتغل بواسطتها الإيديولوجيا داخل وعبر الخطاب. ومكمن قوته يتجلى في تجسيره المسافة بين ظاهرة اللغة الواقعية وعمل السلطة في المجتمع. وسيكون من المأسوف له أن تقوض العيوب المنهاجية والمختصرات النظرية هذه المهمة الجليلة. وتسعى الخلاصات التالية المقترحة إلى اختصار أهم الانتقادات الموجهة إلى التحليل النقدي للخطاب على مدار السنوات، وتقويم وجاهتها بالنسبة إلى

اللسانيين الذين يقرؤون أعمال ممارسي التحليل النقدي للخطاب، أو من يبتغي منهم إنجاز بحث في إطار أنموذج التحليل النقدي للخطاب.

١- يتحدد التحليل النقدي للخطاب أساسا بأهدافه السياسية. وغالبا ما يجاهر الباحثون بالتزاماتهم السياسية، على الأقل بالمعنى العام للكلمة. وينبغي استحضار هذه الالتزامات دائما عندما نؤول أعمالهم.

٢- يحتكم التحليل النقدي للخطاب إلى مجموع واسع من النظريات حول اللغة والمجتمع. لا تحظى هذه النظريات دائما بتعريف واضح، وثمة نزوع نحو الاعتماد على انتقاء مزيج من المفاهيم منتزعة من تقاليد فكرية ليست كلها متوافقة. وعلى الباحثين أن يحاولوا توضيح الخلفية النظرية لأعمالهم، وعلى القراء أن يكونوا أحرارا بتبنيهم موقفا نقديا تجاه الجهاز النظري الذي تطرحه دراسات التحليل النقدي للخطاب، بل حتى مواجهة أسسه.

٣- لقد اتُّهِم ممارسو التحليل النقدي للخطاب باستمرار باستعمالهم لمنهاجية «انطباعية» في تحليل النص، ويجب توخي الحذر عند تطبيق معايير الصرامة نفسها أثناء معالجة المعطيات اللغوية على غرار ما هو معمول به في مجالات أخرى في اللسانيات. وثمة حل ينبغي اتباعه يتمثل في تطبيق تقنيات لسانيات المتون من أجل الحصول على نظرة أكثر تمثيلية من خلال متون لغوية أكثر اتساعا. والحل الآخر يتمثل في نهج أقل انتقائية وأكثر انضباطا ونسقية في تحليل النص. وبشكل خاص عندما تُحَلَّل اللغة المنطوقة حيث يجب أن يؤخذ دائما البعد التداولي بعين الاعتبار.

٤- لطالما قيل إن المحللين النقديين للخطاب ينتقلون بسرعة من المعطيات اللغوية إلى مرحلة تأويل وتفسير المعطيات بمصطلحات النظرية الاجتماعية. إن كان الأمر كذلك، فعلى القراء أن يحرصوا على فحص تأويلات المعطيات المتوفرة

بشكل موضوعي. وعموما، يحتاج الباحثون أن يكونوا منصفين للنص في حد ذاته حتى تكون تأويلاتهم مؤسسة على دعائم قوية.

٥- يتوفر التحليل النقدي للخطاب على نظرية غير ملائمة للكيفية التي تعمل بواسطتها النصوص في السياقات الاجتماعية. يتم التسليم بسذاجة بمسألة استجابة القارئ أو تلقي الجمهور في عملية تأويل الباحث للنص. وعلى القارئ أن يقابل خلاصات من هذا النوع بالأعمال المنجزة في دراسات وسائل الإعلام التي توفر استبصارات أكثر عمقا حول العلاقة بين النصوص والذوات. فعلى الباحثين في التحليل النقدي للخطاب أن يهتموا بهذا البعد، وأن يرسموا مسالك لاستكشاف الاستجابات الواقعية.

٦- وعلى الرغم من توسيع المحللين النقديين للخطاب لحيز استبصاراتهم نحو السياق الأكبر، غير أنهم لم يعيروا اهتماما كافيا بسمات السياق المباشر، مما أسفر عن إنتاج تأويلات غير ملائمة تداوليا أو بعيدة عن انشغالات المشاركين. فالسمات المميزة للسياق المباشر يجب أن ينكب على معالجتها بشكل جاد كل من القراء والباحثين.

٧- بحث التحليل النقدي للخطاب، في العشرين سنة الماضية، بشكل أساسي الكيفية التي تشتغل بموجبها الإيديولوجيا من خلال الخطاب لدعم بنيات السلطة غير المتكافئة. وربما، كان ذلك بإيعاز من الصورة التي كونها التحليل النقدي للخطاب عن نفسه باعتباره قوة «نقدية»، ولقد كان التشديد على هذا الجانب سلبيا بشكل كبير، ويبدو أنه عمل على نشر رؤية حتمية للمجتمع. سيكون تحليل الخطاب الذي يستكشف الخطابات التحررية أو التغييرات الإيجابية في الاستعمال الاجتماعي للغة مفيدا، لأنه سيتيح معلومات حول الكيفية التي يمكن بواسطتها إحداث تحولات إيجابية.

المصطلحات الواردة في متن المقالة:

Critical discourse analysis	التحليل النقدي للخطاب
Paridigm/paradigms	الأنموذج/ الأنموذجات
Methodology	المنهاجية
Method	المنهج
Contextualisation	التسييق
Macro	مكبر
Micro	مصغر
Cognitive	معرفية
Alienation	استلاب
Manipulation	التلاعب
Valency	التكافؤ
Members resources	موارد الأعضاء
Encoded	مشفرة
Processing	معالجة
Reader response	استجابة القارئ
Patterns	أنماط

الهوامش والتعليقات:

(1) Ruth Breeze ; critical discourse analysis and its critics ; in: Pragmatics21: 4.493-525; (2011) International PragmaticsAssociation.

يعود اختياري للمقالة المنشورة بالمنبر المذكور أعلاه من أجل الترجمة لعدة مسوغات، أهمها ارتباط موضوعها بمجال حصل فيه تراكم في الإنتاج في دوائره المعرفية في السنوات السنوات الأخيرة بالعالم العربي، ويتعلق الأمر بالتحليل النقدي للخطاب، فبالرغم من كثرة الأبحاث المنشورة في المجال غير أننا نسجل ندرة الأعمال ذات الطابع النقدي التي تبين بعض الثغرات الإبستمولوجية والمنهاجية المرتبطة بممارسة التحليل النقدي للخطاب. ومن ثمة راهنية العمل الذي نقدمه بين يدي القارئ والذي تتمثل قيمته في مراجعة ونقد بعض الأسس المنهاجية والمعرفية لتخصص معرفي أضحى يحظى بتقدير الباحثين في الخطاب وقضاياه، وذلك في غياب ما تستلزمه الممارسة العلمية من نقد ذاتي مستمر ومتجدد. ولقد عملت على نقل محتويات النص المصدر دون تصرف. وكان لا بد من تبني قرارات تخص اختيارات محددة دون غيرها في عملية ترجمة المصطلح، فوقع اختيارنا على مقابلات معينة اتبعنا في اختيارها مبدأ الشيوع والتداول في أدبيات الترجمات العربية للمصطلح اللساني والنقدي. وتحاشينا نسخ المصطلح الأجنبي بحروف عربية متى كانت ترجمته متاحة من قبيل اعتماد منهاجية بدل ميتودولوجية. وذيلنا البحث بقائمة مصطلحات وردت بالمتن.

(٢) تمتهن روث بريز التدريس بجامعة نافارا بإسبانيا بعد تدريسها بكل من جامعة كامبردج والجامعة المفتوحة بإنجلترا. تشتغل على قضايا ترتبط باستعمال اللغة في المجال التربوي والإعلامي والمهني؛وذلك من أجل فهم الكيفية التي تشتغل بواسطتها اللغة في المجتمع؛ وكيفية صياغتها لتصوراتنا وفهمنا للعالم؛ ولتفاعلاتنا في السياقات الاجتماعية.

البيبليوغرافيا:

- Abercrombie, N. (1996) Television and Society. Cambridge: Polity Press.
- Antaki, C., M. Billig, D. Edwards, and J. Potter (2003) Discourse analysis means doing analysis: Acritique of six analytic shortcomings. In Discourse Analysis Online, 1, retrieved 8 September, 2011, on: http://www.staff.lboro.ac.uk/~ssca1/DAOLpaper.pdf.
- Arminen, I. (2005) Institutional Interaction: Studies of Talk at Work. Aldershot: Ashgate.
- Baker, P., C. Gabrielatos, M. Khosravinik, M. Krzyzanowski, T. McEnery, and R. Wodak (2008) Auseful methodological synergy? Combining critical discourse analysis and corpus linguistics to examinediscourses of refugees and asylum seekers in the UK press. Discourse and Society 19: 273-306.
- Bhatia, V.K. (2002) Applied genre analysis: A multi-perspective model. Ibérica 4: 3-19.
- Billig, M. (2002) Critical discourse analysis and the rhetoric of critique. In G. Weiss and R. Wodak (eds.), Critical Discourse Analysis: Theory and Interdisciplinarity. London: Palgrave Macmillan, pp. 35-46.
- Blommaert, J. (2001) Context is/as critique. Critique of Anthropology 21: 13-32.
- Bluhm, C., D. Deissler, J. Scharloth, and A. Stukenbrock (2000) Linguistische Diskursanalyse: Überblick, Probleme, Perspektiven. Sprache und Literatur in Wissenschaft und Unterricht 88: 3-19.

- Bourdieu, P. (1984a) Distinction: A Social Critique of the Judgement of Taste. London: Routledge.
- Bourdieu, P. (1984b) Homo Academicus. Stanford CA: Stanford University Press.
- Bredehöft, S., K. Gloy, F. Januschek, and R. Patzelt (1994) Studium der Arbeitslösigkeit. Zur diskursiven Aneignung neuer Lebenssituationen. Opladen: Westdeutscher Verlag.
- Caldas-Coulthard, C., and M. Coultard (eds.) (1996) Texts and Practices: Readings in Critical Discourse Analysis. London: Routledge.
- Candlin, C., and K. Hyland (1999) Writing: Texts, processes and practices. London: Longman.
- Chouliaraki, L., and N. Fairclough (1999) Discourse in Late Modernity. Rethinking Critical DiscourseAnalysis. Edinburgh: Edinburgh University Press.
- Coseriu, E. (1980) Textlinguistik: Eine Einführung. Tübingen: Narr.
- Fairclough, N. (1985) Critical and descriptive goals in discourse analysis. Journal of Pragmatics 9: 739-763.
- Fairclough, N. (1989) Language and Power. London: Longman.
- Fairclough, N. (1992a) Discourse and Social Change. Cambridge: Polity.
- Fairclough, N. (1992b) Discourse and text: Linguistic and intertextual analysis within discourse analysis.
Discourse & Society 3.2: 193–217.
- Fairclough, N. (1995) Critical Discourse Analysis. London: Longman.
- Fairclough, N. (1996) A reply to Henry Widdowson's 'Discourse analysis: A critical view'. Language and Literature 5.1: 49-56.

- Fairclough, N. (2000) New Labour, new language? London: Routledge.
- Fairclough, N., and R. Wodak (1997) Critical discourse analysis. In T. van Dijk (ed.), Discourse as Social Interaction. London: Sage, pp. 258-284.
- Fish, S. (1980) Is There A Text in This Class? Cambridge MA: Harvard University Press.
- Foucault, M. (1969) The Archaeology of Knowledge. London: Routledge.
- Foucault, M. (1981) The order of discourse. In R. Young (ed.), Untying the text: A post-structural anthology. Boston: Routledge & Kegan Paul, pp. 48-78.
- Fowler, R. (1991) Language in the News. London: Routledge.
- Fowler, R. (1996) Linguistic Criticism. Oxford: Oxford University Press.
- Fowler, R., B. Hodge, G. Kress, and T. Trew (1979) Language and Control. London: Routledge and Kegan Paul.
- Gergen, K. (1994) Realities and relationships: Soundings in social construction. Cambridge MA: Harvard UniversityPress.
- Gloy, K. (1998) Ethik-Diskurse. Praktiken öffentlicher Konfliktaustragung. Skizze eines Forschungs- vorhabens. Ethik-Diskurse. Praktiken öffentlicher Konfliktaustragung. Arbeitspapier Nr. 1. Oldenburg: Universität Oldenburg.
- Gramsci, A. (1971) Selections from the Prison Notebooks. New York: International Publishers.
- Habermas,J.(1976)VerwissenschaftlichtePolitikundöffentliche-Meinung.InJ.Habermas(ed.),
Technik und Wissenschaft als 'Ideologie'. Frankfurt: Suhrkamp, pp. 120-45.

- Hammersley, M. (1997) On the foundations of critical discourse analysis. Language and Communication 17: 237-248.
- Harding, S. (2004) Introduction. In S. Harding (ed.), The feminist standpoint theory reader. London: Routledge.
- Hodge, R., and G. Kress (1993) Language as Ideology. London: Routledge.
- Hoey, M. (1996) Contrast and compatibility in the definitions of 'man' and 'woman'. In C. Caldas- Coulthard, and M. Coulthard (eds.), Texts and Practices: Readings in Critical Discourse Analysis. London: Routledge, pp. 150-163.
- Jäger, S. (1999) Kritische Diskursanalyse. Eine Einführung. Duisburg: Dissertation.
- Kant, I. (1781) [1964] Critique of Pure Reason. London: Dent.
- Kress, G., and T. van Leeuwen (1992) Structures of visual representation. Journal of Literary Semantics 21.2: 91–117.
- Kress, G. (1996) Representational resources and the production of subjectivity: Questions for thetheoretical development of critical discourse analysis in a multicultural society. In C. Caldas-Coulthardand M. Coulthard (eds.), Text and Practices: Readings in Critical Discourse Analysis. London: Routledge, pp.15-31.
- Kuo, S.H., and M. Nakamura (2005) Translation or transformation? A case study of language andideology in the Taiwanese press. Discourse & Society 16: 393–418.
- Luke, A. (2002) Beyond science and ideological critique: Developments in critical discourse analysis. Annual Review of Applied Linguistics 22: 96-110.

- Maas, U. (1989) Sprachpolitik und politische Sprachwissenschaft. Frankfurt am Main: Suhrkamp.
- Macintyre, A. (1981) After Virtue. A study in moral theology. South Bend: University of Notre DamePress.
- Martin, J. (2004) Positive discourse analysis: Solidarity and change. Revista Canaria de Estudios Ingleses 49: 179-202.
- Mautner, G. (2001) Checks and balances: How corpus linguistics can contribute to CDA. In R. Wodak and M. Meyer (eds.), Methods of Critical Discourse Analysis. London: Sage, pp.122-143.
- Meyer, M. (2001) Between theory, method and politics: positioning of the approaches to CDA. In R. Wodak and M. Meyer (eds.), Methods of critical discourse analysis. London: Sage, pp. 14-31.
- Nightingale, V. (1996) Studying Audiences: The Shock of the Real. London: Routledge.
- Olson, D., and N. Filby (1972) On the comprehension of active and passive sentences. CognitivePsychology 3: 361-381.
- Partington, A. (2003) The Linguistics of Political Argumentation: The Spin-doctor and the Wolf-pack at the White House. London: Routledge.
- Partington, A. (2006) Metaphors, motifs and similes across discourse types: Corpus assisted discoursestudies (CADS) at work. In A. Stefanowitsch and S. Gries (eds.), Corpus-based Approaches to Metaphorand Metonymy. Berlin: Mouton de Gruyter, pp. 267-304.
- Peace, P. (2003) Balancing power: The discursive maintenance of gender inequality by wo/men at university. Feminism and Psychology 13.2: 159–180.

- Pêcheux, M. (1982) Language, semiotics and ideology. (2nd ed.) London: Macmillan.
- Potter, J. (1998) Cognition as context (Whose cognition?). Research on Language and Social Interaction 31.1: 29-44.
- Reese, S., O. Gandy, and A. Grant (2003) Perspectives on Media and our Understanding of the Social World. Mahwah, NJ: Lawrence Erlbaum.
- Reisigl, M. (2007) Nationale Rhetorik in Fest- und Gedenkreden. Tübingen: Stauffenburg.
- Reisigl, M., and R. Wodak (2001) Discourse and discrimination. London: Routledge.
- Reisigl, M., and R. Wodak (2009) The discourse historical approach. In R. Wodak and M. Meyer (eds.),
Methods of critical discourse analysis. London: Sage. pp. 87-121.
- Rogers, R., E. Malancharuvil-Berkes, M. Mosley, D. Hui, and Joseph G. O'Garro (2005) Criticaldiscourse analysis in education: A review of the literature. Review of Educational Research 75.3: 365-416.
- Sarangi, S., and C. Roberts (1999) Talk, work and institutional order: Discourse in medical, institutional and management settings. Berlin: Mouton de Gruyter.
- Schegloff, E. (1997) Whose text? Whose context? Discourse and Society 8.2: 165-187.
- Scholem, G. (1982) Walter Benjamin: The story of a friendship. New York: New York Review of Books.
- Scholes, R. (1994) Textual Power. New Haven: Yale University Press.

- Shaw, B. (1985) Reason, nostalgia, and eschatology in the critical theory of Max Horkheimer. TheJournal of Politics 47.1: 160-181.
- Schroder, K. (2002) Discourses of fact. In K.B. Jensen (ed.), Handbook of Media and Communication Research. London: Routledge, pp. 98-116.
- Slembrouck, S. (2001) Explanation, interpretation and critique in the analysis of discourse. Critique ofAnthropology 21: 33-57.
- Stenvall, M. (2007) Fear of terror attack persists: Constructing fear in reports on terrorism by international news agencies. In A. Hodges and C. Nilep (eds.), Discourse, War and Terrorism. Amsterdam: John Benjamins Publishing Company, pp.205-222.
- Stubbs, M. (1994) Grammar, text and ideology. Computer-assisted methods in the linguistics of representation. Applied Linguistics 15.2: 201-223.
- Stubbs, M. (1997) Whorf's children: Critical comments on critical discourse analysis. In A. Ryan, and A. Wray (eds.), Evolving models of language. Clevedon: Multilingual Matters, pp. 100-116.
- Toolan, M. (1997) What is critical discourse analysis and why are people saying such terrible things about it? Language and literature 6.2: 83-102.
- van Dijk, T. (1991) Racism and the press. London: Routledge.
- van Dijk, T. (1993) Elite discourse and racism. Newbury Park: Sage.
- van Dijk, T. (1999) Critical discourse analysis and conversation analysis. Discourse and Society 10.4: 459-460.

- van Dijk, T. (2003) Critical discourse analysis? In D. Schiffrin, D. Tannen and H. Hamilton (eds.), The hand book of discourse analysis. Oxford: Blackwell, pp. 352-371.
- Van Dijk, T. (2006) Discourse and manipulation. Discourse and Society 17.3: 359-383.
-Verschueren, J. (2001) Predicaments of criticism. Critique of Anthropology 21.1: 59-81.
- Verschueren, J. (2011) Ideology in Language Use: Pragmatic guidelines for empirical research.
Cambridge: Cambridge University Press.
- Wales, R., and R. Grieve (1969) What is so difficult about negation? Attention, Perception and Psychophysics 6. 6: 327-332.
- Weiss, G., and R. Wodak (2002) Introduction: Theory, interdisciplinarity and critical discourse analysis. In G. Weiss and R. Wodak (eds.), Critical Discourse Analysis: Theory and Interdisciplinarity. London: Palgrave Macmillan, pp. 1-32.
- Widdowson, H. (1996) Reply to Fairclough. Discourse and interpretation. Conjectures and refutations.
Language and Literature 5.1: 57-69.
- Widdowson, H. (1998) The theory and practice of Critical Discourse Analysis. Applied Linguistics 19.1: 136-151.
- Widdowson, H. (2005) Text, Context, Pretext: Critical Issues in Discourse Analysis. Oxford: Blackwell. Wodak, R. (1986) Language behavior in therapy groups. Los Angeles: University of California Press. Wodak, R. (1996) Disorders of discourse. London: Longman.
- Wodak, R. (2001) The discourse-historical approach. In R. Wodak and M. Meyer (eds.), Methods of critical discourse analysis. London: Sage, pp. 63-95.

- Wodak, R. (2007) Pragmatics and critical discourse analysis: A cross-disciplinary enquiry. Pragmaticsand Cognition 15.1: 203-225.
- Wodak, R. (2011) Critical linguistics and critical discourse analysis. In J. Östman, P. Ledin, and J.Verschueren (eds.), Discursive Pragmatics. Amsterdam: John Benjamins Publishing Company, pp. 50-69.
- Wodak, R., J. Pelikan, P. Nowak, H. Gruber, R. de Cillia, and R. Mitten (1990) Wir sind alle unschuldige Täter!" Diskurshistorische Studien zum Nachkriegsantisemitismus. Frankfurt am Main: Suhrkamp.